الفصل الخامس

الطواف على القبائل، وهجرة الصحابة إلى المدينة

المبحث الأول

الطواف على القبائل طلبًا للنصرة

بعد رجوعه ﷺ من الطائف، بدأ يعرض نفسه على القبائل في المواسم، يشرح لهم الإسلام، ويطلب منهم الإيواء والنصرة، حتى يُبَلِّغ كلام الله ﷻ. وكان رسول الله ﷺ يتحرك في المواسم التجارية، ومواسم الحج التي تجتمع فيها القبائل، وفق خطة سياسية دعوية واضحة المعالم، ومحددة الأهداف، وكان يصاحبه أبو بكر الصديق، الرجل الذي تخصص في معرفة أنساب العرب وتاريخها، وكانا يقصدان «غرر الناس ووجوه القبائل، وكان أبو بكر رضي الله عنه، يسأل وجوه القبائل، ويقول لهم: كيف العدد فيكم؟ وكيف المنعة فيكم؟ وكيف الحرب فيكم؟ وذلك قبل أن يتحدث رسول الله ﷺ ويعرض دعوته»[1].

يقول المقريزي: «ثم عرض ﷺ نفسه على القبائل أيام الموسم، ودعاهم إلى الإسلام، وهم بنو عامر، وغسان، وبنو فزارة، وبنو مرة، وبنو حنيفة، وبنو سليم، وبنو عبس، وبنو نصر، وثعلبة بن عكابة، وكندة، وكلب، وبنو الحارث بن كعب، وبنو عذرة، وقيس بن الخطيم، وأبو اليسر أنس بن أبي رافع» وقد استقصى الواقدي أخبار هذه القبائل قبيلة، قبيلة، ويقال إنه ﷺ بدأ بكندة فدعاهم إلى الإسلام، ثم أتى كلبًا ثم بني حنيفة، ثم بنى عامر، وجعل يقول: من رجل يحملني إلى قومه فيمنعني، حتى أبلغ رسالة ربي فإن قريشًا قد منعوني أن أبلغ رسالة ربي؟ هذا وأبو لهب وراءه يقول للناس: لا تسمعوا منه فإنه كذاب[2].

ولم يقتصر الأذى على ذلك، بل واجه الرسول ﷺ ماهو أشد وأقسى، فقد روى البخاري في تاريخه، والطبراني في الكبير، عن مدرك بن منيب أيضًا عن أبيه عن جده رضي الله تعالى عنه قال: رأيت رسول الله ﷺ في الجاهلية، وهو يقول: «يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا» فمنهم من تفل في وجهه، ومنهم من حثا عليه التراب، ومنهم من سبّه، حتى

---

(١) انظر: الأنساب للسمعاني (١/ ٣٦).

(٢) انظر: إمتاع الأسماع للمقريزي (١/ ٣٠، ٣١).

انتصف النهار، فأقبلت جارية بِعُسّ من ماء فغسل وجهه ويديه، وقال: يا بنية لا تخشي على أبيك غلبة ولا ذلة، فقلت: من هذه؟ قالوا: زينب بنت رسول الله ﷺ، وهي جارية وضيئة[١].

وقد كان أبو جهل، وأبو لهب، لعنهما الله، يتناوبان على أذية رسول الله ﷺ عندما يدعو في الأسواق والمواسم، وكان يجد منهما عنتًا كبيرًا، إضافة إلى ما يلحقه من المدعوين أنفسهم[٢].

أولاً: من أساليب النبي ﷺ في الرد على مكائد أبي جهل والمشركين أثناء الطواف على القبائل:

١ - **مقابلة القبائل في الليل**: فكان ﷺ من حكمته العالية يخرج لمقابلة القبائل في ظلام الليل، حتى لا يحول بينه وبينهم أحد من المشركين[٣]، وقد نجح هذا العمل في إبطال مفعول الدعاية المضادة، التي كانت تَتَّبِعها قريش، كلما اتصل الرسول ﷺ بقبيلة من القبائل، والدليل على نجاح هذا الأسلوب المضاد، اتصال الرسول ﷺ بالأوس والخزرج ليلًا، ومن ثم كانت العقبة الأولى، والثانية ليلًا[٤].

٢ - **ذهاب الرسول ﷺ إلى القبائل في منازلهم**: فقد أتى كلبًا وبني حنيفة، وبنى عامر في منازلهم[٥]. . وبذلك يحاول أن يبتعد عن مطاردة قريش، فيستطيع أن يتفاوض مع القبائل بالطريقة المناسبة، دونما تشويش أو تشويه من قريش.

٣ - **اصطحاب الأعوان**: كان أبو بكر، وعلي رضي الله عنهما، يرافقان الرسول ﷺ في بعض مفاوضاته مع بعض القبائل، وربما كانت هذه الرفقة لأجل ألا يظن المدعوون أنه وحيد، ولا أعوان له من أشراف قومه وأقاربه، هذا إلى جانب معرفة أبي بكر رضي الله عنه بأنساب العرب[٦]، الأمر الذي يساعد الرسول ﷺ في التعرف على معادن القبائل، فيقع الاختيار على أفضلها، لتحمل تبعات الدعوة.

٤ - **التأكد من حماية القبيلة**: ومن الجوانب الأمنية المهمة، سؤاله ﷺ عن المنعة والقوة لدى القبائل، قبل أن يوجه إليهم الدعوة، ويطلب منهم الحماية، فقوة ومنعة القبيلة التي تحمي الدعوة، شيء ضروري، ومهم، لابد منه، لأن هذه القبيلة ستواجه كل قوى الشر والباطل،

---

(١) انظر: المحنة في العهد المكي، (ص ٥٣).

(٢) المصدر نفسه (ص ٥٣).

(٣) انظر: تاريخ إسلام للنجيب أبادي (١/ ١٢٩) نقلاً عن الرحيق المختوم.

(٤) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٤٤، ٥٢)، في السيرة النبوية قراءة لجوانب الحذر والحماية (ص ١١٦).

(٥) انظر: البداية والنهاية لابن كثير (٣/ ١٤٠).

(٦) في السيرة النبوية قراءة لجوانب الحذر والحماية (ص ١١٦).

فلا بد أن تكون أهلًا لهذا الدور، من حيث الاستعداد المعنوي، والمادي، الذي يرهب الأعداء، ويحمي حمى الدعوة، ويتحمل تبعات نشرها، مزيلًا لكل العقبات التي تقف في طريقها[١].

ثانيًا: المفاوضات مع بني عامر:

اختار الرسول ﷺ أن يجري مفاوضات مع بني عامر، فقامت تلك المفاوضات على دراسة وتخطيط، فالرسول، وصاحبه أبو بكر، كانا يعلمان أن بني عامر قبيلة مقاتلة كبيرة العدد، وعزيزة الجانب، بل هي من القبائل الخمس التي لم يمسها سبَاء، ولم تتبع لملك، ولم تؤد إتاوة[٢]، مثلها مثل قريش وخزاعة[٣]، كما أن الرسول ﷺ كان يعلم أن هنالك تضادًا قديمًا بين بني عامر وثقيف، فإذا كانت ثقيف امتنعت عليه من الداخل، فلماذا لا يحاول أيضًا تطويقها من الخارج، والاستفادة في ذلك من بني عامر بن صعصعة، فإذا استطاع النبي ﷺ أن يبرم حلفًا مع بني عامر؛ فإن موقف ثقيف سيكون على حافة الخطر[٤]. يذكر أصحاب السيرة أن الرسول ﷺ لما أتى بني عامر بن صعصعة، فدعا إلى الله، وعرض عليهم نفسه، قال له رجل منهم يقال له بَيْحَرة بن فراس: والله لو أني أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب، ثم قال له: أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك، أيكون لنا الأمر من بعدك؟ قال: «الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء»، قال: فقال له: أَفَتُهْدَفُ نحورنا للعرب دونك، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا؟ لا حاجة لنا بأمرك فأبوا عليه[٥].

ثالثًا: المفاوضات مع بني شيبان:

ففي رواية علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، قال: لما أمر الله ﷻ نبيه ﷺ أن يعرض نفسه على قبائل العرب، خرج، وأنا معه... إلى أن قال: ثم دفعنا إلى مجلس آخر، عليه السكينة والوقار، فتقدم أبو بكر فسلم فقال: من القوم؟ قالوا: شيبان بن ثعلبة، فالتفت أبو بكر إلى رسول الله ﷺ، وقال: بأبي وأمي، هؤلاء غُرَر الناس، وفيهم مفروق قد غلبهم لسانًا وجمالاً، وكانت له غديرتان تسقطان على تَرِيبَتَيه، وكان أدنى القوم مجلسًا من أبي بكر، فقال أبو بكر: كيف العدد فيكم؟ فقال مفروق: إنا لنزيد على الألف، ولن تُغلب ألف من قلة، فقال أبو بكر: وكيف المنعة فيكم؟ فقال مفروق: إنا لأشد ما نكون غضبًا حين نلقى، وأشد ما نكون لقاء حين نغضب، وإنا لنؤثر الجياد على الأولاد، والسلاح على اللقاح، والنصر من عند الله، يديلنا مرة، ويديل علينا أخرى، لعلك أخو قريش؟ فقال أبو بكر: إن كان بلغكم أنه

---

(١) المصدر السابق نفسه (ص ١١٦، ١١٧).

(٢) انظر: أصول الفكر السياسي (ص ١٨٢). سِبَاء: لم تُسْبَ نساؤها في الحروب.

(٣) المصدر نفسه(ص ١٨٢).

(٤) المصدر نفسه (١٨٢).

(٥) انظر: سيرة ابن هشام (٢/٣٨).

رسول الله ﷺ فها هو ذا. فقال مفروق: إلام تدعونا يا أخا قريش. فقال رسول الله ﷺ: «أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأني عبد الله ورسوله، وإلى أن تؤوُوني وتنصروني، فإن قريشًا قد تظاهرت على الله، وكذبت رسوله، واستغنت بالباطل عن الحق، والله هو الغني الحميد»، فقال مفروق: وإلام تدعو أيضًا يا أخا قريش؟ فوالله ما سمعت كلامًا أحسن من هذا، فتلا رسول الله ﷺ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: الآية ١٥١].

فقال مفروق: دعوت والله إلى مكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال، ولقد أفك قوم كذبوك، وظاهروا عليك، ثم رد الأمر إلى هانىء بن قبيصة فقال: وهذا هانىء شيخنا، وصاحب ديننا، فقال هانىء: قد سمعت مقالتك يا أخا قريش، وإني أرى تركنا ديننا، واتباعنا دينك لمجلس جلست إلينا، لا أول له، ولا آخر لذل في الرأي، وقلة نظر في العاقبة. إن الزلة مع العجلة، وأنا نكره أن نعقد على من وراءنا عقدًا ولكن نرجع وترجع، وننظر، ثم كأنه أحب أن يشركه المثنى بن حارثة، فقال: وهذا المثنى شيخنا وصاحب حربنا، فقال المثنى ـ وأسلم بعد ذلك ـ: قد سمعت مقالتك يا أخا قريش، والجواب فيه جواب هانىء بن قبيصة، في تركنا ديننا، ومتابعتنا دينك، وإنا إنما نزلنا بين صَرَيَيْن، أحدهما اليمامة، والآخر السَّمامَة، فقال له رسول الله ﷺ: «ما هذان الصريان»، قال: أنهار كسرى، ومياه العرب، فأما ما كان ـ من أنهار كسرى، فذنب صاحبه غير مغفور، وعذره غير مقبول، وإنا إنما نزلنا على عهد أخذه علينا كسرى، أن لا نحدث حدثًا، ولا نؤوي محدثًا، وإني أرى هذا الأمر الذي تدعونا إليه يا أخا قريش مما تكره الملوك، فإن أحببت أن نؤويك وننصرك مما يلي مياه العرب، فعلنا، فقال رسول الله ﷺ: «ما أسأتم في الرد، إذ أفصحتم بالصدق، وإن دين الله ﷻ لن ينصره إلا من حاطه من جميع جوانبه، أرأيتم إن لم تلبثوا إلا قليلاً، حتى يورثكم الله تعالى أرضهم وديارهم، ويفرشكم نساءهم، أتسبحون الله وتقدسونه»، فقال النعمان (بن شريك): اللهم فلك ذاك[1].

رابعًا: فوائد ودروس وعبر:

كانت النصرة التي طلبها النبي ﷺ ذات صفة مخصوصة، وذلك على النحو التالي:

١ ـ كان طلب الرسول ﷺ للنصرة من خارج مكة، إنما بدأ ينشط بشكل ملحوظ بعد أن اشتد الأذى عليه، عقب وفاة عمه أبي طالب، الذي كان يحميه من قريش، وذلك لأن من يحمل

(١) انظر: البداية والنهاية (٣/ ١٤٢، ١٤٣، ١٤٥) وفيها زيادات ليست عند الصالحي في سُبُل الرشاد (٢/ ٥٩٦ ـ ٥٩٧).

الدعوة لن يستطيع أن يتحرك التحرك الفعَّال لأجلها وتوفير الاستجابة لها، في جوّ من العنف، والضغط والإرهاب.

٢ ـ كان عرض الرسول ﷺ نفسه على القبائل يطلب منهم النصرة، إنما هو بأمر من الله ـ ﷻ ـ له في ذلك، وليس مجرد اجتهاد من قبل نفسه، اقتضته الظروف التي وصلت إليها الدعوة.

٣ ـ حصر رسول الله ﷺ طلب النصرة في زعماء القبائل، وذوي الشرف والمكانة ممن لهم أتباع يسمعون لهم، ويطيعون، لأن هؤلاء هم القادرون على توفير الحماية للدعوة وصاحبها.

٤ ـ رفض النبي ﷺ أن يعطي القوى المستعدة لتقديم نصرتها، أية ضمانات بأن يكون لأشخاصهم شيء من الحكم والسلطان، على سبيل الثمن، أو المكافأة لما يقدمونه من نصرة وتأييد للدعوة الإسلامية، وذلك لأن الدعوة الإسلامية إنما هي دعوة إلى الله، فالشرط الأساسي فيمن يؤمن بها، ويستعد لنصرتها أن يكون الإخلاص لله، ونشدان رضاه، هما الغاية التي يسعى إليها من النصرة والتضحية، وليس طمعًا في نفوذ أو رغبة في سلطان، وذلك لأن الغاية التي يضعها الإنسان للشيء، هي التي تكيف نشاط الإنسان في السعي إليه، فلا بد إذن من أن تتجرد الغاية المستهدفة من وراء نصرة الدعوة، عن أي مصلحة مادية، لضمان دوام التأييد لها، وضمان المحافظة عليها من أي انحراف، وضمان أقصى ما يمكن من بذل الدعم لها، وتقديم التضحيات في سبيلها[١]، فيجب على كل من يريد أن يلتزم بالجماعة التي تدعو إلى الله، ألا يشترط عليها منصبًا، أو عرضًا من أعراض الدنيا، لأن هذه الدعوة لله، والأمر لله يضعه حيث يشاء، والداخل في أمر الدعوة إنما يريد ابتداءً وجه الله، والعمل من أجل رفع رايته، أما إذا كان المنصب هو همه الشاغل، فهذ علامة خطيرة، تنبىء عن دخن في نية صاحبها[٢]، لذا قال يحيى بن معاذ الرازي: «لا يفلح من شممت منه رائحة الرياسة»[٣].

٥ ـ ومن صفة النصرة التي كان رسول الله ﷺ يطلبها لدعوته من زعماء القبائل، أن يكون أهل النصرة غير مرتبطين بمعاهدات دولية، تتناقض مع الدعوة، ولا يستطيعون التحرر منها، وذلك لأن احتضانهم للدعوة والحالة هذه، يُعرّضُها لخطر القضاء عليها من قبل الدول التي بينهم وبينها تلك المعاهدات، والتي تجد في الدعوة الإسلامية خطرًا عليها، وتهديدًا لمصالحها[٤].

---

(١) انظر: الجهاد والقتال في السياسة الشرعية، لمحمد خير (١/ ٤١١).

(٢) انظر: وقفات تربوية في السيرة النبوية، عبد الحميد البلالي (ص ٧٢).

(٣) انظر: صفة الصفوة (٤/ ٩٤).

(٤) انظر: الجهاد والقتال في السياسة الشرعية (١/ ٤٢١).

إن الحماية المشروطة أو الجزئية لا تحقق الهدف المقصود، فلن يخوض بنو شيبان حربًا ضد كسرى، لو أراد القبض على رسول الله ﷺ وتسليمه، ولن يخوضوا حربًا ضد كسرى، لو أراد مهاجمة محمد رسول الله ﷺ وأتباعه، وبذلك فشلت المباحثات[١].

٦ - «إن دين الله لن ينصره إلا من حاطه من جميع جوانبه»، كان هذا الرد من النبي ﷺ على المثنى بن حارثة، حين عرض على النبي ﷺ حمايته على مياه العرب، دون مياه الفرس، فمن يسبر أغوار السياسة البعيدة، يَرَ بعد النظر الإسلامي النبوي الذي لا يسامي[٢].

٧ - كان موقف بني شيبان يتسم بالأَرْيَحِيَّة والخلق والرجولة، وينم عن تعظيم هذا النبي، وعن وضوح في العرض، وتحديد مدى قدرة الحماية التي يملكونها، وقد بينوا أن أمر الدعوة مما تكرهه الملوك، وقدّر الله لشيبان بعد عشر سنين أو تزيد، أن تحمل هي ابتداء عبء مواجهة الملوك، بعد أن أشرق قلبها بنور الإسلام، وكان المثنى بن حارثة الشيباني، صاحب حربهم، وبطلهم المغوار، الذي قاد الفتوح في أرض العراق، في خلافة الصديق رضي الله عنه، [٣] فكان وقومه من أجراء المسلمين بعد إسلامهم على قتال الفرس، بينما كانوا في جاهليتهم يرهبون الفرس ولا يفكرون في قتالهم، بل إنهم ردوا دعوة النبي ﷺ بعد اقتناعهم بها لاحتمال أن تلجئهم إلى قتال الفرس، الأمر الذي لم يكونوا يفكرون فيه أبدًا، وبهذا نعلم عظمة هذا الدين، الذي رفع الله به المسلمين في الدنيا، حيث جعلهم سادة الأرض، مع ما ينتظرون في أخراهم من النعيم الدائم في جنات النعيم[٤].

المبحث الثاني

مواكب الخير وطلائع النور

قال جابر بن عبد الله الأنصاري:

مكث رسول الله ﷺ بمكة عشر سنين، يَتَّبِعُ الناس في منازلهم، بُعكاظ ومَجَنَّة، وفي المواسم بمنى، يقول: «من يؤويني؟ من ينصرني، حتى أبلّغ رسالة ربي، وله الجنة؟» حتى إن الرجل لَيخرجَ من اليمن أو مصر، - كذا قال - فيأتيه قومه فيقولون: احذر غلام قريش لا يَفْتِنْكَ، ويمشي بين رجالهم وهم يشيرون إليه بالأصابع، حتى بَعَثَنا الله إليه من يثرب، فآويناه وصدقناه، فيخرج الرجل منا فيؤمن به ويقرئه القرآن، فينقلب إلى أهله فيسلمون بإسلامه، حتى لم يَبْقَ دار من الأنصار إلا وفيها رهط من المسلمين يظهرون الإسلام[٥].

---

(١) انظر: التحالف السياسي في الإسلام، منير الغضبان (ص ٥٣).

(٢) المصدر نفسه (ص ٦٤).

(٣) انظر: التربية القيادية (٢/ ٢٠).

(٤) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٣/ ٦٩).

(٥) مسند أحمد (٣/ ٣٢٢، ٣٣٢) «إسناده صحيح على شرط مسلم»، قاله محققو طبعة مؤسسة الرسالة.

أولاً: الاتصالات الأولى بالأنصار في مواسم الحج والعمرة:

١ - **إسلام سويد بن الصامت:** كان رسول الله ﷺ لا يسمع بقادم يقدم مكة من العرب، له اسم وشرف إلا تصدّى له، ودعاه إلى الله، وعرض عليه ما جاء به من الهدى والحق، فقدم سويد بن الصامت - أخو بني عمرو بن عوف - مكة حاجًا أو معتمرًا، وكان سويد يسميه قومه فيهم الكامل، لجَلَده، وشِعْره، وشرفه، ونسبه، فتصدى له رسول الله ﷺ حين سمع به، فدعاه إلى الله والإسلام، فقال له سويد: فلعل الذي معك مثل الذي معي؟ فقال له رسول الله ﷺ: «وما الذي معك؟» قال: مجلة[١] لقمان، فقال له رسول الله: «اعرضها علي» فعرضها عليه فقال: «إن هذا الكلام حسن، والذي معي أفضل من هذا: قرآن أنزله الله عليَّ، هو هدى ونور»، فتلا عليه رسول الله ﷺ القرآن، ودعاه إلى الإسلام، فلم يُبعد منه، وقال: إن هذا القول حسن، ثم انصرف عنه، فقدم المدينة على قومه، فلم يلبث أن قتله الخزرج، وقد كان رجال من قومه يقولون: إنا لنراه قتل وهو مسلم، وكان قتله يوم بُعاث[٢]. وعلى أية حال لا توجد دلائل على قيام سويد بن الصامت بالدعوة إلى الإسلام وسط قومه[٣].

٢ - **إسلام إياس بن معاذ:** لما قدم أبو الحَيْسَر بن رافع، مكة، ومعه فتيان من بني عبد الأشهل، فيهم إياس بن معاذ، يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج، سمع بهم رسول الله ﷺ، فأتاهم فجلس إليهم، فقال: «هل لكم في خير مما جئتم له»؟ قالوا: وما ذاك؟ قال: «أنا رسول الله إلى العباد، أدعوهم إلى أن يعبدوا الله، ولا يشركوا به شيئًا، وأنزل عليّ الكتاب»، ثم ذكر لهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن فقال إياس بن معاذ - وكان غلامًا حدثًا -: هذا والله خير مما جئتم له، فيأخذ أبو الحيسر حَفْنَةً من تراب، فضرب بها وجه إياس بن معاذ، وقال: دعنا منك، فلعمري لقد جئنا لغير هذا، فصمت إياس، وقام رسول الله ﷺ عنهم، وانصرفوا إلى المدينة، وكانت وقعة بُعاث بين الأوس والخزرج، ثم لم يلبث إياس بن معاذ أن هلك. وقد روى من حضره من قومه أنه ما زال يهلل الله ويكبره ويحمده ويسبحه حتى مات، فما كانوا يشكّون أنه مات مسلمًا، لقد كان استشعر الإسلام في ذلك المجلس، حين سمع من رسول الله ﷺ ماسمع[٤].

ثانيًا: بدء إسلام الأنصار:

كانت البداية المثمرة مع وفد من الخزرج في موسم الحج، عند عقبة منى، قال لهم رسول الله ﷺ: «من أنتم؟».

---

(١) المجلة الصحيفة، وتطلق على الحكمة أي حكمة لقمان.

(٢) سيرة ابن هشام (٢/ ٤٠) بإسناد حسن.

(٣) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/ ١٩٥).

(٤) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٤١) بإسناد حسن.

قالوا: نفر من الخزرج.

قال: «أمن موالي يهود؟».

قالوا: نعم:

قال: «أفلا تجلسون أكلمكم؟».

قالوا: بلى، فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله ﷻ، وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن[١].

فلما كلم رسول الله ﷺ أولئك النفر، ودعاهم إلى الله، قال بعضهم لبعض: يا قوم: تَعَلَّموا والله إنه للنبي الذي توعَّدكم به يهود، فلا تسبقُنَّكم إليه، فأجابوه فيما دعاهم إليه، بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام، وقالوا: إنا قد تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم، فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليك، فلا رجل أعز منك. ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ راجعين إلى بلادهم، وقد آمنوا وصدَّقوا[٢]، وكانوا ستة نفر: وهم: أبو أمامة أسعد بن زُرارة، وعوف بن الحارث، من بني النجار، ورافع بن مالك وقُطْبة بن عامر، وعُقْبة بن عامر، وجابر بن عبد الله بن رئاب[٣]، فلما قدموا المدينة إلى قومهم، ذكروا لهم رسول الله ﷺ، ودعوهم إلى الإسلام، حتى فشا بينهم، فلم تبقَ دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر لرسول الله ﷺ[٤].

فهذا أول موكب من مواكب الخير، لم يكتف بالإيمان وإنما أخذ العهد على نفسه، أن يدعوَ إليه قومه، وقد وفى كل منهم لدينه ورسوله، فإنهم حين رجعوا نشطوا في الدعوة إلى الله، وعرضوا كلمة الهدى على أهلهم وذويهم، فلم تبقَ دار من دور المدينة إلا وفيها ذكر لمحمد ﷺ، وهكذا عندما يأذن الله تأتي ساعة الحسم الفاصلة، فقد كان لقاء هؤلاء مع الرسول على غير موعد، لكنه لقاء هيأه الله ليكون نبع الخير المتجدد الموصول، ونقطة التحول الحاسم في التاريخ.. وساعة الخلاص المحقق من عبادة الأحجار، بل إنها على التحقيق، ساعة الحسم في مصير العالم كله، ونقل الحياة من الظلمات إلى النور. أكان معقولاً في لحظة يسيرة أن يتحول هؤلاء من وثنيين متعصبين، إلى أنصار للدعوة متفتحين، وجنود للحق مخلصين، ودعاة إلى الله متجردين، يذهبون إلى أقوامهم، وبين جوانحهم نور، وعلى وجوههم نور، وإنهم لعلى نور؟ تلك مشيئة القدر العالي، هيأت للدعوة مجالها الخصب، وحماها الأمين.

---

(١) المصدر السابق نفسه (٢/ ٤١، ٤٢).

(٢) البداية والنهاية (٣/ ١٤٨، ١٤٩).

(٣) انظر: شرح المواهب للزرقاني (١/ ٣٦٢).

(٤) انظر: البداية والنهاية (٣/ ١٤٧).

والسنوات العجاف التي قضاها الرسول نضالاً مستمرًا، وكفاحًا دائمًا، وتطوافًا على القبائل، والتماسًا للحليف.. قد ولت إلى غير رجعة.. سيكون بعد اليوم للإسلام قوته الرادعة وجيشه الباسل، وسيلتقي الحق بالباطل، ليصفي معه حساب الأيام الخوالي، والعاقبة للمتقين، وستتوالى على مكة منذ اليوم مواكب الخير، وطلائع النور، التي هيأها الله للخير، لتتصل بالهداية، وتسبح في النور، وتغترف من الخير، وترجع إلى يثرب، بما وعت من خير، وبما حملت من نور[١].

ومن الجدير بالتنبيه أن هذه المقابلة التي حدثت عند العقبة، وتلاقى فيها فريق من الخزرج بالنبي ﷺ، وأسلموا على يديه، لم تكن فيها بيعة[٢]، لأنها كانت من نفر صغير لم يروا لأنفسهم الحق في أن يلتزموا بمعاهدة دون الرجوع إلى قبائلهم في المدينة، ولكنهم أخلصوا في تبليغ رسالة الإسلام[٣].

ثالثًا: بيعة العقبة الأولى:

بعد عام من المقابلة الأولى التي تمت بين الرسول ﷺ، وأهل يثرب، عند العقبة، وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلاً فلقوه ﷺ بالعقبة، وبايعوه العقبة الأولى، (عشرة من الخزرج، واثنان من الأوس)، مما يشير إلى أن نشاط وفد الخزرج الذين أسلموا في العام الماضي تركز على وسطهم القبلي بالدرجة الأولى، لكنهم تمكنوا في الوقت نفسه من اجتذاب رجال الأوس، وكان ذلك بداية ائتلاف القبيلتين تحت راية الإسلام[٤].

وقد تحدث عبادة بن الصامت الخزرجي عن البيعة في العقبة الأولى، فقال: «كنت فيمن حضر العقبة الأولى، وكنا اثني عَشَر رجلاً، فبايَعْنا رسولَ الله ﷺ على بيعة النساء ـ وذلك قبل أن تُفترض علينا الحرب: على أن لا نشرك بالله، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف، فإن وفَيتم فلكم الجنة، وإن غَشِيتم من ذلك شيئًا فأمركم إلى الله، ﷻ، إن شاء عذبكم، وإن شاء غفر لكم»[٥].

وبنود هذه البيعة هي التي بايع الرسول ﷺ عليها النساء فيما بعد، ولذلك عرفت باسم بيعة النساء[٦]، وقد بعث الرسول ﷺ مع المبايعين مصعب بن عمير، يعلمهم الدين، ويُقْرِئُهم

---

(١) انظر: أضواء على الهجرة لتوفيق محمد سبع (ص ٢٧٣، ٢٧٤).

(٢) انظر: هجرة الرسول وصحابته للجمل (ص ١٤٣).

(٣) المصدر نفسه (ص ١٤٣).

(٤) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/١٩٧).

(٥) مسند الإمام أحمد (٢٢٧٥٤) ط. م. الرسالة، وقال محققوه: حديث صحيح وهذا إسناد حسن. وانظر صحيح مسلم [(٤١ـ (١٧٠٩))].

(٦) انظر: الغرباء الأولون (ص ١٨٥).

القرآن، فكان يسمى بالمدينة (المقرىء) وكان يؤمهم في الصلاة، وقد اختاره رسول الله ﷺ عن علم بشخصيته من جهة، وعلم بالوضع القائم في المدينة من جهة أخرى، حيث كان - رضي الله عنه - بجانب حفظه لما نزل من القرآن، يملك من اللباقة والهدوء، وحسن الخلق والحكمة قدرًا كبيرًا، فضلاً عن قوة إيمانه، وشدة حماسه للدين، ولذلك تمكن خلال أشهر أن ينشر الإسلام في سائر بيوتات المدينة، وأن يكسب للإسلام أنصارًا من كبار زعمائها، كسعد بن معاذ، وأسيد بن الحضير، وقد أسلم بإسلامهما خلق كثير من قومهم[1].

لقد نجحت سفارة مصعب بن عمير، رضي الله عنه، في شرح تعاليم الدين الجديد، وتعليم القرآن الكريم، وتفسيره، وتقوية الروابط الأخوية بين أفراد القبائل المؤمنة من ناحية، وبين النبي ﷺ وصحبه بمكة المكرمة، لإيجاد القاعدة الأمينة لانطلاق الدعوة.

وقد نزل مصعب بن عمير - رضي الله عنه - في يثرب على أسعد بن زرارة رضي الله عنه [2]، ونشط المسلمون في الدعوة إلى الله، يقود تلك الحركة الدعوية الرائدة مصعب رضي الله عنه وقد انتهج منهج القرآن الكريم، في دعوته، وهذا الذي تعلمه من إمامه ﷺ، وقد شرح لنا بعض الآيات القرآنية المكية، بصورة عملية حية مثل قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: الآية ١٢٥].

رابعًا: قصة إسلام أُسيد بن حُضير، وسعد بن معاذ رضي الله عنهما:

كان سعد بن معاذ، وأسيد بن حضير سيِّدَيْ قومهما، من بني عبد الأشهل، وكانا مشركين على دين قومهما، فلما سمعا بمصعب بن عمير، ونشاطه في الدعوة إلى الإسلام، قال سعد لأسيد: لا أبا لك، انطلق إلى هذين الرجلين، اللذين أتيا ليُسَفِّها ضعفاءنا، فازجرهما، وانههما أن يأتيا دارَينا، فإنه لولا أسعد بن زرارة مني حيث قد علمت، كفيتك ذلك، هو ابن خالتي، ولا أجد عليه مقدمًا، فأخذ أسيد حربته ثم أقبل عليهما، فلما رآه أسعد بن زرارة قال: هذا سيد قومه، وقد جاءك، فاصدق الله فيه، قال مصعب: إن يجلسْ أكلمه، فوقف عليهما متشتمًا فقال: ما جاء بكما تسفِّهان ضعفاءنا؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة، فقال له مصعب بلسان المؤمن الهادي، الواثق من سماحة دعوته: أو تجلس فتسمع، فإن رضيت أمرًا قبلته، وإن كرهته نَكُفّ عنك ماتكره؟

قال أسيد: أنصفتَ، ثم ركز حربته، وجلس إليهما، فكلمه مصعب بالإسلام، وقرأ عليه القرآن، فقالا فيما يذكر عنهما: والله لعرفنا في وجهه الإسلام - قبل أن يتكلم - في إشراقه وتسهُّله، ثم قال: ما أحسن هذا الكلام، وأجمله! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا

---

(١) انظر: الغرباء الأولون (ص ١٨٦، ١٨٧).

(٢) انظر: السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة (١/ ٤٤١).

الدين؟ قالا له: تغتسل فتطَّهر، وتطهِّر ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلِّي، فقام فاغتسل، وطهّر ثوبيه، وتشهد شهادة الحق، ثم قام فركع ركعتين، ثم قال لهما: إن ورائي رجلاً، إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه، وسأرسله إليكم الآن: سعد بن معاذ.

ثم أخذ حربته، وانصرف إلى سعد وقومه، وهم جلوس في ناديهم، فلما نظر إليه سعد مقبلاً قال: أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بن حضير بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم!!

فما وقف على النادي، قال له سعد: ما فعلت؟ قال: كلمت الرجلين فوالله ما رأيت بهما بأسًا، وقد نهيتهما فقالا: نفعل ما أحببت، وقد حُدِّثت أن بني حارثة خرجوا إلى أسعد بن زرارة، ليقتلوه، وذلك أنهم عرفوا أنه ابن خالتك ليحقروك[1].

فقام سعد مغضبًا مبادرًا مخوفًا، للذي ذكر له من أمر بني حارثة، وأخذ الحربة في يده ثم قال: والله ما أراك أغنيت شيئًا، ثم خرج إليهما سعد فوجدهما مطمئنين، فعرف أن أسيدًا إنما أراد أن يسمع منهما، فوقف متشتمًا، ثم قال لأسعد بن زرارة: والله يا أبا أمامة لولا ما بيني وبينك من القرابة مارُمْتَ هذا مني، أتغشانا في دارنا بما نكره، وكان أسعد قد قال لمصعب: لقد جاء ـ والله ـ سيد مَنْ وراءه من قومه، إن يتبعك لا يتخلف منهم اثنان، فقال له مصعب: أو تقعد فتسمع؟ فإن رضيت أمرًا، ورغبت فيه قبلته، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره، فقال سعد: أنصفت، ثم ركز الحربة، وجلس فعرض عليه الإسلام، وقرأ القرآن، وذكر موسى بن عقبة أنه قرأ عليه أول سورة الزخرف، قالا: فعرفنا ـ والله ـ في وجهه الإسلام ـ قبل أن يتكلم ـ في إشراقه وتسهله.

ثم قال لهما: كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم، ودخلتم في هذا الدين؟ قالا: تغتسل، فتطهَّر، وتطهِّر ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلي ركعتين، فقام فاغتسل، وطهّر ثوبيه، ثم تشهد شهادة الحق، ثم ركع ركعتين، ثم أخذ حربته، فأقبل عائدًا إلى نادي قومه، ومعه أسيد بن حضير، فلما رآه قومه مقبلاً قالوا: نحلف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلما وقف عليهم قال: يا بني عبد الأشهل، كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيدنا وأفضلنا رأيًا وأيمننا نقيبة، قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم عليّ حرام، حتى تؤمنوا بالله ورسوله، قال: فوالله ما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلمًا أو مسلمة.

ورجع أسعد ومصعب إلى منزل أسعد بن زرارة فأقام عنده يدعو الناس إلى الإسلام، حتى لم يبق دار من دور الأنصار، إلا وفيها رجال مسلمون ونساء مسلمات، إلا ما كان من الأُصَيْرِم، وهو عمرو بن ثابت بن وقيش، فإنه تأخر إسلامه إلى يوم أحد فأسلم، واستشهد

(١) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (١/ ٤٤٢).

بأحد، ولم يصلِّ لله سجدة قط، وأخبر رسول الله ﷺ أنه من أهل الجنة.

وقد روى ابن إسحاق بإسناد حسن عن أبي هريرة أنه كان يقول: «حدّثوني عن رجل دخل الجنة لم يصلِّ صلاة قط، فإذا لم يعرفه الناس؛ قال: هو أُصَيْرِمْ بني عبد الأشهل»(١).

خامسًا: فوائد ودروس وعبر:

١ ـ اتجه التخطيط النبوي للتركيز على يثرب بالذات، وكان للنفر الستة الذين أسلموا دور كبير في بث الدعوة إلى الإسلام، خلال ذلك العام.

٢ ـ كانت هناك عدة عوامل ساعدت على انتشار الإسلام في المدينة منها:

ـ ما طبع الله عليه قبائل الخزرج والأوس من الرقة واللين، وعدم المغالاة في الكبرياء وجحود الحق، وذلك يرجع إلى الخصائص الدموية والسلالية التي أشار إليها رسول الله ﷺ حين وفد وفد من اليمن، بقوله: «أتاكم أهل اليمن، هم أرق أفئدة، وألين قلوبًا»(٢) وهما ترجعان في أصليهما إلى اليمن، نزح أجدادهم منها في الزمن القديم(٣)، فيقول القرآن الكريم مادحًا لهم: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: الآية ٩].

ـ ومنها التشاحن والتطاحن الموجود بين قبيلتي المدينة، الأوس والخزرج، وقد قامت بينهما الحروب الطاحنة كيوم بُعاث، وغيره، وقد أفنت هذه الحرب كبار زعمائهم، ممن كان نظراؤهم في مكة والطائف وغيرها، حجر عثرة في سبيل الدعوة، ولم يبقَ إلا القيادات الشابة الجديدة المستعدة لقبول الحق، إضافة إلى عدم وجود قيادة بارزة معروفة، يتواضع الجميع على التسليم لها، وكانوا بحاجة إلى من يأتلفون عليه، ويلتئم شملهم تحت ظله، قالت السيدة عائشة رضي الله عنها: «كان يوم بُعاث يومًا قدمه الله تعالى لرسوله ﷺ، فَقَدِم رسول الله ﷺ وقد افترق ملؤهم، وقُتِلت سَرَوَاتهم(٤) وجُرِّحوا، فقدمه الله لرسوله ﷺ في دخولهم في الإسلام»(٥).

ـ ومنها مجاورتهم لليهود مما جعلهم على علم ـ ولو يسير ـ بأمر الرسالات السماوية، وخبر المرسلين السابقين، وهم ـ في مجتمعهم ـ يعايشون هذه القضية في حياتهم اليومية، وليسوا مثل قريش التي لا يساكنها أهل كتاب، وإنما غاية أمرها أن تسمع أخبارًا متفرقة عن

---

(١) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (١/ ٤٤٤)، صحيح السيرة النبوية (ص ٢٩١).
(٢) البخاري، كتاب المغازي، باب قدوم الأشعريين (رقم ٤٣٨٨).
(٣) انظر: السيرة النبوية لأبي الحسن الندوي (ص ١٥٤).
(٤) السَرَوات: الأشراف.
(٥) البخاري: كتاب مناقب الأنصار، باب مناقب الأنصار (٤/ ٢٦٧ رقم ٣٧٧٧).

الرسالات، والوحي الإلٰهي، دون أن تلح عليها هذه المسألة أو تشغل تفكيرها باستمرار، وكان اليهود يهددون الأوس والخزرج بنبي قد أظل زمانه، ويزعمون أنهم سيتبعونه، ويقتلونهم به قتل عاد وإرم!، مع أن الأوس والخزرج كانوا أكثر من اليهود[١]، وقد حكى الله عنهم ذلك في كتابه العزيز، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٨٩].

وكان الأوس والخزرج قد علوا اليهود دهرًا في الجاهلية، وهم أهل شرك، وهؤلاء أهل الكتاب، فكانوا يقولون: إن نبيًّا قد أظل زمانه، نقتلكم به قتل عاد وإرم[٢].

فلما أراد الله إتمام أمره بنصر دينه، قيض ستة نفر من أهل المدينة، للنبي ﷺ فالتقى بهم عند العقبة ـ عقبة منى ـ فعرض عليهم الإسلام، فاستبشروا وأسلموا، وعرفوا أنه النبي الذي توعدهم به اليهود، ورجعوا إلى المدينة، فأفشوا ذكر النبي ﷺ في بيوتها[٣]، وكان هذا هو (بدء إسلام الأنصار) كما يسميه أهل السير[٤].

٣ ـ حضر بيعة العقبة الأولى اثنان من الأوس، وهذا تطور مهم لمصلحة الإسلام، فبعد الحرب العنيفة في بُعاث، استطاع النفر الستة من الخزرج أن يتجاوزوا قصة الصراعات الداخلية، ويحضروا معهم سبعة جددًا، فيهم اثنان من الأوس، وهذا يعني أنهم وفوا بالتزاماتهم التي قطعوها على أنفسهم في محاولة رأب الصدع، وتوجيه التيار لدخول الإسلام في المدينة، أوسها وخزرجها، وتجاوز الصراعات القبلية القائمة.

٤ ـ بذل الرسول ﷺ كل ما يملك من جهد، لتعبئة الطاقات الإسلامية في المدينة، ولم يكن هناك أدنى تقصير للجهد البشري الممكن، في بناء القاعدة الصلبة التي تقوم على أكتافها الدولة الجديدة، واحتل هذا الجهد سنتين كاملتين من الدعوة والتنظيم[٥].

٥ ـ نجحت التعبئة الإيمانية في نفوس من أسلم من الأنصار، وشعرت الأنصار بأنه قد آن الوقت لقيام الدولة الجديدة، وكما يقول جابر، رضي الله عنه، وهو يمثل هذه الصورة الرفيعة الرائعة: «حتى متى نترك رسول الله ﷺ يطوف ويطرد في جبال مكة ويخاف؟»[٦].

٦ ـ وصل مصعب رضي الله عنه إلى مكة، قبيل الموسم من العام الثالث عشر للبعثة، ونقل الصورة

---

(١) انظر: الغرباء الأولون (ص ١٨٣).
(٢) الدر المنثور للسيوطي (١/ ٢١٦).
(٣) انظر: ابن هشام (١/ ٤٤).
(٤) المصدر نفسه (١/ ٣٩، ٤٤).
(٥) انظر: التحالف السياسي (ص ٧١).
(٦) المصدر السابق نفسه.

الكاملة التي انتهت إليها أوضاع المسلمين هناك، والقدرات والإمكانات المتاحة، وكيف تغلغل الإسلام في جميع قطاعات الأوس والخزرج، وأن القوم جاهزون لبيعة جديدة، قادرة على حماية رسول الله ﷺ ومنعته[١].

٧ - كان اللقاء الذي غيَّر مجرى التاريخ، في موسم الحج في السنة الثالثة عشرة من البعثة، حيث حضر لأداء مناسك الحج بضع وسبعون نفسًا من المسلمين، من أهل يثرب، فلما قدموا مكة، جرت بينهم وبين النبي ﷺ، اتصالات سرية، أدت إلى اتفاق الفريقين على أن يجتمعوا في أوسط أيام التشريق، في الشِعْب الذي عند العقبة، حيث الجمرة الأولى من مِنىَ، وأن يتم هذا الاجتماع في سرية تامة في ظلام الليل[٢].

المبحث الثالث

بيعة العقبة الثانية

قال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: [... فقلنا: حتى متى نترك رسول الله ﷺ، يطرد في جبال مكة ويُخاف، فرحل إليه منا سبعون رجلاً، حتى قدموا عليه في الموسم، فواعدناه شعب العقبة، فاجتمعنا عليه من رجل ورجلين، حتى توافينا فقلنا: يا رسول الله علام نبايعُك؟

قال: «تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل، والنفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وأن تقولوا في الله، لا تخافون في الله لومة لائم، وعلى أن تنصروني فتمنعوني، إذا قدمت عليكم، مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم، ولكم الجنة».

قال: فقمنا إليه فبايعناه، وأخذ بيده أسعد بن زرارة - وهو من أصغرهم - فقال: رويدًا يا أهل يثرب، فإنا لم نضرب أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله ﷺ، وأنَّ إخراجه اليوم مفارقةُ العرب كافة، وقتلُ خياركم، وأن تعضكم السيوف، فإما أنتم قوم تصبرون على ذلك، وأجركم على الله، وإما أنتم قوم تخافون من أنفسكم جُبَيْنة، فبينوا ذلك، فهو أعذرُ لكم عند الله، قالوا: أمط عنا يا أسعد، فوالله لا ندع هذه البيعة أبدًا، ولا نَسْلِيها[٣] أبدًا، قال: فقمنا إليه فبايعناه، فأخذ علينا وشرط، ويعطينا على ذلك الجنة][٤].

وهكذا بايع الأنصار رسول الله ﷺ على الطاعة، والنصرة، والحرب، لذلك سماها عبادة بن الصامت بيعة الحرب[٥]، أما رواية الصحابي كعب بن مالك الأنصاري - وهو أحد

---

(١) المصدر نفسه (ص ٧٢).

(٢) المصدر نفسه (ص ٧٣).

(٣) نَسْلِيها: أي نتركها، وفي رواية لأحمد: «ولا نَسْتَقِيْلُها».

(٤) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/ ١٩٩)، وأخرجه الإمام أحمد، وهذا لفظه، ورقمه (١٤٤٥٦) ط. م. الرسالة، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط مسلم.

(٥) مسند الإمام أحمد (٥/ ٣١٦) ورقمه (٢٢٧٠٠)، بإسناد صحيح لغيره.

المبايعين في العقبة الثانية ـ ففيها تفاصيل مهمة، قال: «خرجنا في حجاج قومنا من المشركين، وقد صلينا وفقهنا... ثم خرجنا إلى الحج، وواعدنا رسول الله ﷺ، العقبة من أوسط أيام التشريق... وكنا نكتم من معنا من المشركين أمرنا، فنمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا، حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله، نتسلل تسلل القطا مستخفين، حتى اجتمعنا في الشِّعب عند العقبة، ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً، ومعنا امرأتان من نسائنا، نُسيبة بنت كعب، وأسماء بنت عمرو، فاجتمعنا في الشِّعب ننتظر رسول الله ﷺ حتى جاءنا، ومعه العباس بن عبد المطلب، وهو يومئذٍ على دين قومه، إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه، ويتوثق له، فلما جلس كان أول متكلم العباس بن عبد المطلب؛ فبين أن الرسول في منعة، من قومه بني هاشم، ولكنه يريد الهجرة إلى المدينة، ولذلك فإن العباس يريد التأكد من حماية الأنصار له، وإلا فليدعوه، فطلب الأنصار أن يتكلم رسول الله، فيأخذ لنفسه ولربه ما يحب من الشروط.

قال: «أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم» فأخذ البراء بن معرور بيده، ثم قال: نعم والذي بعثك بالحق، لنمنعنّك مما نمنع منه أُزرنا، فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أهل الحرب، وأهل الحلقة، ورثناها كابرًا عن كابر، فقاطعه أبو الهيثم بن التَّيِّهان متسائلاً: يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال حبالاً وإنا قاطعوها (يعني اليهود)، فهل عسيتم إن نحن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدَعنا؟ فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: «بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم، وأنتم مني، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم».

ثم قال: «أَخرجوا إليَّ منكم اثني عشر نقيبًا ليكونوا على قومهم بما فيهم»، فأَخْرَجوا منهم اثني عشر نقيبًا، تسعة من الخزرج، وثلاثة من الأوس.

وقد طلب الرسول الله منهم الانصراف إلى رحالهم، وقد سمعوا الشيطان يصرخ منذرًا قريشًا، فقال العباس بن عبادة بن نضلة: والله الذي بعثك بالحق، إن شئت لنميلنَّ على أهل منى غدًا بأسيافنا.

فقال رسول الله ﷺ: «لم نؤمر بذلك ولكن ارجعوا إلى رحالكم»، فرجعوا إلى رحالهم، وفي الصباح جاءهم جمع من كبار قريش، يسألونهم عما بلغهم من بيعتهم للنبي، ودعوتهم له للهجرة، فحلف المشركون من الخزرج والأوس، بأنهم لم يفعلوا، والمسلمون ينظرون إلى بعضهم[1]، قال: ثم قام القوم وفيهم الحارث بن هشام بن المغيرة المخزومي، وعليه نعلان جديدان قال: فقلت له كلمة ـ كأني أريد أن أشرَكَ القوم ـ فيما قالوا بها: يا أبا جابر أما تستطيع أن تتخذ، وأنت سيد من ساداتنا، مثل نَعْلَي هذا الفتى من قريش؟ قال: فسمعهما

(١) انظر: ابن هشام (٢/ ٦١)، بإسناد حسن، وانظر: السيرة النبوية الصحيحة للعمري (١/ ٢٠١).

الحارث فخلعهما من رجليه، ثم رمى بها إِليَّ، وقال: والله لَتَنْتَعلَنَّهما، قال: يقول أبو جابر: مه أحفظت والله الفتى، فاردد إِليه نعليه. قال: قلت: لا والله، لا أردهما، فأل والله صالح، لئن صدق الفأل لأسْلُبَنَّه[١].

● **دروس وعبر وفوائد:**

١ - «كانت هذه البيعة العظمى بملابساتها، وبواعثها، وآثارها، وواقعها التاريخي (فتح الفتوح)، لأنها كانت الحلقة الأولى في سلسلة الفتوحات الإِسلامية التي تتابعت حلقاتها في صور متدرجة، مشدودة بهذ البيعة، منذ اكتمل عقدها، بما أخذ فيها رسول الله ﷺ من عهود ومواثيق، على أقوى طليعة من طلائع أنصار الله، الذين كانوا أعرف الناس بقدر مواثيقهم وعهودهم، وكانوا أسمح الناس بالوفاء بما عاهدوا الله ورسوله عليه، من التضحية، مهما بلغت متطلباتها من الأرواح، والدماء والأموال، فهذه البيعة في بواعثها؛ هي بيعة الإِيمان بالحق ونصرته، وهي في ملابساتها قوة تناضل قوى هائلة، تقف متألبة عليها، ولم يغب عن أنصار الله قدرها، ووزنها في ميادين الحروب والقتال، وهي في آثارها تشمير ناهض بكل ما يملك أصحابها من وسائل الجهاد القتالي، في سبيل إِعلاء كلمة الله، على كل عالٍ مستكبر في الأرض، حتى يكون الدين كله لله، وهي في واقعها التاريخي صدق وعدل، ونصر واستشهاد، وتبليغ لرسالة الإِسلام»[٢].

٢ - إِن حقيقة الإِيمان وأثره في تربية النفوس، تظهر آثارها في استعداد هذه القيادات الكبرى، لأن تبذل أرواحها ودماءها في سبيل الله ورسوله، ولا يكون لها الجزاء في هذه الأرض، كسبًا ولا منصبًا، ولا قيادة ولا زعامة، وهم الذين أفنوا عشرات السنين من أعمارهم، يتصارعون على الزعامة والقيادة، إِنه أثر الإِيمان بالله وبحقيقة هذا الدين عندما يتغلغل في النفوس[٣].

٣ - يظهر التخطيط العظيم في بيعة العقبة، حيث تمت في ظروف غاية في الصعوبة، وكانت تمثل تحديًا خطيرًا وجريئًا لقوى الشرك، في ذلك الوقت، ولذلك كان التخطيط النبوي لنجاحها في غاية الإِحكام والدقة، على النحو التالي[٤]:

أ - سرية الحركة، والانتقال لجماعة المبايعين، حتى لا ينكشف الأمر، فقد كان وفد المبايعة المسلم، سبعين رجلاً وامرأتين، من بين وفد يثربي، قوامه نحو

---

(١) انظر: مجمع الزوائد (٦/ ٤٢ـ ٤٦) وقال الألباني في تحقيق فقه السيرة للغزالي: وهذا سند صحيح. وصححه ابن حبان، كما في الفتح (٧/ ٤٧٥).

(٢) انظر: محمد رسول الله، محمد الصادق عرجون (٢/ ٤٠٠).

(٣) انظر: التربية القيادية (٢/ ١٠٣).

(٤) انظر: الهجرة النبوية المباركة، د. عبد الرحمٰن البر (ص ٦١).

خمسمائة، مما يجعل حركة هؤلاء السبعين صعبة، وانتقالهم أمرًا غير ميسور، وقد تحدد موعد اللقاء في ثاني أيام التشريق، بعد ثلث الليل، حيث النوم قد ضرب أعين القوم، وحيث قد هدأت الرِّجْل، كما تم تحديد المكان في الشعب الأيمن، بعيدًا عن عين من يستيقظ من النوم لحاجة[١].

ب ـ الخروج المنظم لجماعة المبايعين، إلى موعد ومكان الاجتماع، فخرجوا يتسللون مستخفين، رجلاً رجلاً، أو رجلين رجلين.

جـ ـ ضرب السرية التامة على موعد ومكان الاجتماع، بحيث لم يعلم به سوى العباس بن عبد المطلب، الذي جاء مع النبي ﷺ ليتوثق له[٢]، وعلي بن أبي طالب، الذي كان عينًا للمسلمين على فم الشعب، وأبو بكر الذي كان على فم الطريق، وهو الآخر عَيْنٌ للمسلمين[٣]، أما من عداهم من المسلمين، وغيرهم فلم يكن يعلم عن الأمر شيئًا، وقد أمر جماعة المبايعين أن لا يرفعوا الصوت، وأن لا يطيلوا في الكلام، حذرًا من وجود عين يسمع صوتهم، أو يجس حركتهم[٤].

د ـ متابعة الإخفاء والسرية، حين كشف الشيطان أمر البيعة، فأمرهم النبي ﷺ أن يرجعوا إلى رحالهم، ولا يحدثوا شيئًا، رافضًا الاستعجال في المواجهة المسلحة، التي لم تتهيأ لها الظروف بعد، وعندما جاءت قريش تستبرىء الخبر، موّه المسلمون عليهم بالسكوت، أو المشاركة بالكلام، الذي يشغل عن الموضوع[٥].

هـ ـ اختيار الليلة الأخيرة من ليالي الحج، وهي ليلة الثالث عشر من ذي الحجة، حيث سينفر الحجاج إلى بلادهم، ظهر اليوم التالي، وهو يوم الثالث عشر، ومن ثم تضيق الفرصة أمام قريش، في اعتراضهم، أو تعويقهم، إذا انكشف أمر البيعة، وهو أمر متوقع وهذا ما حدث[٦].

٤ ـ كانت البنود الخمسة للبيعة من الوضوح والقوة بحيث لا تقبل التمييع والتراخي، إنه السمع والطاعة في النشاط والكسل، والنفقة في اليسر والعسر، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والقيام في الله، لا تأخذهم فيه لومة لائم.. ونصر رسول الله وحمايته إذا قدم المدينة[٧].

---

(١) انظر: الهجرة النبوية المباركة (ص ٦١).
(٢) المصدر نفسه (ص ٦٢).
(٣) انظر: التربية القيادية (٢/١٠٩).
(٤) انظر: الهجرة النبوية المباركة (ص ٦٢).
(٥) المصدر نفسه (ص ٦٥).
(٦) المصدر نفسه (ص ٦٧).
(٧) انظر: التحالف السياسي (ص ٨٢).

٥ ـ سرعان ما استجاب قائد الأنصار دون تردد، البراء بن معرور قائلاً: والذي بعثك بالحق، لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا، فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أبناء الحرب، وأهل الحلقة، ورثناها كابرًا عن كابر، فهذا زعيم الوفد يعرض إمكانات قومه على رسول الله ﷺ، فقومه أبناء الحرب والسلاح[١]. ومما يجدر الإشارة إليه في أمر البراء، أنه عندما جاء مع قومه من يثرب قال لهم: إني قد رأيت رأيًا فوالله ما أرى أتوافقوني عليه أم لا؟

فقالوا: وما ذاك؟ قال: قد رأيت أن لا أدع هذه البَنِيَّة ـ يعني الكعبة ـ مني بظهر، وأن أصلي إليها، فقالوا له: والله ما بلغنا أن النبي ﷺ يصلِّي إلا إلى الشام ـ ببيت المقدس ـ وما نريد أن نخالفه، فكانوا إذا حضرت الصلاة صلوا إلى بيت المقدس، وصلَّى هو إلى الكعبة، واستمروا كذلك حتى قدموا مكة، وتعرفوا إلى رسول الله ﷺ، وهو جالس مع عمه العباس بالمسجد الحرام، فسأل النبي ﷺ العباسَ: «هل تعرف هذين الرجلين يا أبا الفضل»؟ قال: نعم، هذا البراء بن معرور سيد قومه، وهذا كعب بن مالك، فقال النبي ﷺ: «الشاعر؟» قال: نعم، فقصَّ عليه البراء ما صنع في سفره، من صلاته إلى الكعبة. قال: فماذا ترى يا رسول الله؟ قال: «قد كنت على قبلة لو صبرت عليها»[٢] قال كعب: فرجع البراء إلى قبلة رسول الله ﷺ، وصلَّى معنا إلى الشام، فلما حضرته الوفاة أمر أهله أن يوجهوه قبل الكعبة، ومات في صفر قبل قدومه ﷺ بشهر، وأوصى بثلث ماله إلى النبي، فقبله وردَه على ولده، وهو أول من أوصى بثلث ماله[٣] ويستوقفنا في هذا الخبر:

أ ـ الانضباط والالتزام من المسلمين بسلوك رسولهم وأوامره، وإن أي اقتراح مهما كان مصدره، يتعارض مع ذلك، يعتبر مرفوضًا، وهذه من أولويات الفقه في دين الله، تأخذ حيزها من حياتهم، وهم بعد ما زالوا في بداية الطريق.

ب ـ إن السيادة لم تعد لأحد غير رسول الله ﷺ، وإن توقير أي إنسان واحترامه، إنما هو انعكاس لسلوكه والتزامه بأوامر الرسول ﷺ، وهكذا بدأت تنزاح تقاليد جاهلية، لتحل محلها قيم إيمانية، فهي المقاييس الحقة التي بها يمكن الحكم على الناس تصنيفًا وترتيبًا[٤].

٦ ـ كان أبو الهيثم بن التَّيِّهان صريحًا عندما قال للرسول ﷺ: إن بيننا وبين الرجال حبالاً وإنا قاطعوها ـ يعني اليهود ـ فهل عسيتم إن نحن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله، أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ فتبسم رسول الله ﷺ وقال: «بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم»، وهذا الاعتراض يدلنا على الحرية

(١) انظر: التحالف السياسي (ص ٨٢).
(٢) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (١/ ٤٤٤).
(٣) المصدر نفسه (١/ ٤٤٥).
(٤) انظر: معين السيرة النبوية للشامي (ص ١٣٥).

العالية، التي رفع الله تعالى المسلمين إليها بالإسلام، حيث عبر عما في نفسه بكامل حريته[١]، وكان جواب سيد الخلق ﷺ عظيمًا، فقد جعل نفسه جزءًا من الأنصار، والأنصار جزءًا منه[٢].

٧ ـ يؤخذ من اختيار النقباء دروس مهمة منها:

أ ـ أن الرسول ﷺ لم يعين النقباء، إنما ترك طريق اختيارهم إلى الذين بايعوا، فإنهم سيكونون عليهم مسؤولين وكفلاء، والأولى أن يختار الإنسان من يكفله ويقوم بأمره، وهذا أمر شورى، وأراد الرسول ﷺ أن يمارسوا الشورى عمليًّا من خلال اختيار نقبائهم.

ب ـ التمثيل النسبي في الاختيار، من المعلوم أن الذين حضروا البيعة من الخزرج أكثر من الذين حضروا البيعة من الأوس، ثلاثة أضعاف من الأوس، بل يزيدون، ولذلك كان النقباء ثلاثة من الأوس، وتسعة من الخزرج[٣].

جـ ـ جعل رسول الله ﷺ النقباء مشرفين على سير الدعوة في يثرب، حيث استقام عود الإسلام هناك، وكثر معتنقوه، وأراد الرسول ﷺ أن يشعرهم أنهم لم يعودوا غرباء، لكي يبعث إليهم أحدًا من غيرهم، وأنهم غدوا أهل الإسلام وحماته وأنصاره[٤].

٨ ـ تأكد زعماء مكة من حقيقة الصفقة، التي تمت بين رسول الله ﷺ والأنصار، فخرجوا في طلب القوم، فأدركوا سعد بن عبادة بأذاخر، والمنذر بن عمرو، وكلاهما كان نقيبًا، فأما المنذر فأعجز القوم، وأما سعد فأخذوه، فربطوا يديه إلى عنقه بنسع رحله، ثم أقبلوا به حتى أدخلوه مكة، يضربونه ويجذبونه بجمته ـ وكان ذا شعر كثير[٥] ـ واستطاع أن يتخلص من قريش بواسطة الحارث بن حرب بن أمية، وجبير بن مطعم، لأنه كان يجير تجارتهم ببلده؛ فقد أنقذته أعراف الجاهلية، ولم تنقذه سيوف المسلمين، ولم يجد في نفسه غضاضة من ذلك، فهو يعرف أن المسلمين مطاردون في مكة، وعاجزون عن حماية أنفسهم[٦].

٩ ـ قول العباس بن عبادة بن نضلة: والله الذي بعثك بالحق، إن شئت لنميلنَّ على أهل منى

(١) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٣/ ٩٧).
(٢) انظر: التربية القيادية (٢/ ٦٧).
(٣) انظر: السيرة النبوية لأبي فارس (ص ٢٠٩).
(٤) انظر: دراسات في السيرة النبوية، د. عماد الدين خليل (ص ١٣٢).
(٥) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٣/ ١٠٧).
(٦) انظر: التربية القيادية (٢/ ١١٦).

غدًا بأسيافنا، وقول رسول الله ﷺ: «لم نؤمر بذلك ولكن ارجعوا إلى رحالكم»، درس تربوي بليغ، وهو أن الدفاع عن الإسلام، والتعامل مع أعداء هذا الدين ليس متروكًا لاجتهاد أتباعه، وإنما هو خضوع لأوامر الله تعالى، وتشريعاته الحكيمة، فإذا شرع الجهاد، فإن أمر الإقدام أو الإحجام، متروك لنظر المجتهدين بعد التشاور، ودراسة الأمر من جميع جوانبه[١]، وكلما كانت عبقرية التخطيط السياسي أقوى أدّت إلى نجاح المهمات أكثر، وإخفاء المخططات وتنفيذها عن العدو، هو الكفيل بإذن الله بنجاحها «ولكن ارجعوا إلى رحالكم»[٢].

١٠ ـ كانت البيعة بالنسبة للرجال ببسط رسول الله ﷺ يده، وقالوا له: ابسط يدك، فبسط يده، فبايعوه، وأما بيعة المرأتين اللتين شهدتا الوقعة فكانت قولاً، ما صافح رسول الله ﷺ امرأة أجنبية قط، فلم يتخلف أحد في بيعته ﷺ حتى المرأتان بايعتا بيعة الحرب، وصدقتا عهدهما، فأما نُسيبة بنت كعب (أم عمارة)، فقد سقطت في أُحد، وقد أصابها اثنا عشر جرحًا، وقد خرجت يوم أحد مع زوجها، زيد بن عاصم بن كعب، ومعها سقاء تسقي به المسلمين، فلما انهزم المسلمون، انحازت إلى رسول الله ﷺ، فكانت تباشر القتال، وتذب عنه بالسيف، وقد أصيبت بجراح عميقة وشهدت بيعة الرضوان[٣]، وقطع مسيلمة الكذاب ابنها، إربًا إربًا، فما وهنت، وما استكانت[٤]، وشهدت معركة اليمامة، في حروب الردة، مع خالد بن الوليد، فقاتلت حتى قطعت يدها، وجُرحت اثْنَيْ عشر جُرحًا[٥]. وأما الثانية فهي أسماء ابنة عمرو من بني سلمة، قيل هي والدة معاذ بن جبل، وقيل ابنة عمة معاذ بن جبل ﷺ جميعًا[٦].

١١ ـ عندما نراجع تراجم أصحاب العقبة الثانية من الأنصار، في كتب السير والتراجم، نجد أن هؤلاء الثلاثة والسبعين قد استشهد قرابة ثلثهم على عهد النبي ﷺ وبعده، ونلاحظ أنه قد حضر المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ قرابة النصف، فثلاثة وثلاثون منهم كانوا بجوار الرسول ﷺ في جميع غزواته، وأما الذين حضروا غزوة بدر فكانوا قرابة السبعين.

لقد صدق هؤلاء الأنصار عهدهم مع الله ورسوله، فمنهم من قضى نحبه، ولقي ربه شهيدًا، ومنهم من بقي حتى ساهم في قيادة الدولة المسلمة، وشارك في أحداثها الجسام، بعد

---

(١) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٣/ ١٠٤).

(٢) انظر: التحالف السياسي في الإسلام (ص ٩٦).

(٣) انظر: المرأة في العهد النبوي، د. عصمة الدين كركر (ص ١٠٨).

(٤) انظر: التحالف السياسي (ص ٨٧).

(٥) ابن هشام (٢/ ٨٠)، أسد الغابة (٥/ ٣٩٥)، البداية والنهاية (٣/ ١٥٨ـ ١٦٦)، الإصابة (٨/ ٨ـ رقم ٤٨، ٤٩) نقلاً عن المرأة في العهد النبوي (ص ١٠٨).

(٦) انظر: المرأة في العهد النبوي (ص ١٠٨).

وفاة رسول الله ﷺ، وبمثل هذه النماذج قامت دولة الإسلام، النماذج التي تعطي ولا تأخذ، والتي تقدم كل شيء، ولا تطلب شيئًا إلا الجنة، ويتصاغر التاريخ في جميع عصوره ودهوره، أن يحوي في صفحاته أمثال هؤلاء الرجال[١].

المبحث الرابع

الهجرة إلى المدينة

أولاً: التمهيد والإعداد لها:

إن الهجرة إلى المدينة سبقها تمهيد وإعداد، وتخطيط من النبي ﷺ، وكان ذلك بتقدير الله تعالى وتدبيره، وكان هذا الإعداد في اتجاهين، إعداد في شخصية المهاجرين، وإعداد في المكان المهاجر إليه.

١ ـ إعداد المهاجرين:

لم تكن الهجرة نزهة أو رحلة، يروح فيها الإنسان عن نفسه، ولكنها مغادرة الأرض والأهل، ووشائج القربى، وصلات الصداقة والمودة، وأسباب الرزق، والتخلي عن كل ذلك، من أجل العقيدة، ولهذا احتاجت إلى جهد كبير، حتى وصل المهاجرون إلى قناعة كاملة، بهذه الهجرة، ومن تلك الوسائل:

ـ التربية الإيمانية العميقة التي تحدثنا عنها في الصفحات الماضية.

ـ الاضطهاد الذي أصاب المؤمنين، حتى وصلوا إلى قناعة كاملة بعدم إمكانية المعايشة مع الكفر.

ـ تناول القرآن المكي التنويه بالهجرة، ولفت النظر إلى أن أرض الله واسعة، قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزُّمَر: الآية ١٠].

ثم تلا ذلك نزول سورة الكهف، وتحدثت عن الفتية الذين آمنوا بربهم، وعن هجرتهم من بلدهم إلى الكهف، وهكذا استقرت صورة من صور الإيمان في نفوس الصحابة، وهي ترك أهلها ووطنها من أجل عقيدتها.

ثم تلا ذلك آيات صريحة تتحدث عن الهجرة في سورة النحل، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [النحل: ٤١ ـ ٤٢].

---

(١) انظر: التربية القيادية (٢/ ١٤٠).

وفي أواخر السورة، يؤكد المعنى مرة أخرى بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: الآية ١١٠].

وكانت الهجرة إلى الحبشة تدريبًا عمليًّا على ترك الأهل والوطن(١).

٢ ـ الإعداد في يثرب:

نلاحظ أن الرسول ﷺ لم يسارع بالانتقال إلى الأنصار، من الأيام الأولى، وإنما أخر ذلك لأكثر من عامين، حتى تأكد من وجود القاعدة الواسعة نسبيًّا، كما كان في الوقت نفسه يتم إعدادها في أجواء القرآن الكريم، وخاصة بعد انتقال مصعب إلى المدينة.

وقد تأكد أن الاستعداد لدى الأنصار قد بلغ كماله، وذلك بطلبهم هجرة الرسول الكريم إليهم، كما كانت المناقشات التي جرت في بيعة العقبة الثانية، تؤكد الحرص الشديد من الأنصار على تأكيد البيعة، والاستيثاق للنبي ﷺ بأقوى المواثيق على أنفسهم، وكان في رغبتهم أن يميلوا على أهل منًى، ممن آذى رسول الله ﷺ، بأسيافهم لو أذن الرسول الكريم بذلك، ولكنه قال لهم: «لم أؤمر بذلك».

وهكذا تم الإعداد لأهل يثرب، ليكونوا قادرين على استقبال المهاجرين وما يترتب على ذلك من تبعات(٢).

ثانيًا: طلائع المهاجرين:

لما بايعتْ طلائعُ الخير، ومواكب النور من أهل يثرب، النبيَّ ﷺ على الإسلام، والدفاع عنه، ثارت ثائرة المشركين، فازدادوا إيذاءً للمسلمين، فأذن النبي ﷺ للمسلمين بالهجرة إلى المدينة، وكان المقصود من الهجرة إلى المدينة إقامة الدولة الإسلامية، التي تحمل الدعوة، وتجاهد في سبيلها، حتى لا تكون فتنة، ويكون الدين كله لله(٣)، وكان التوجه إلى المدينة من الله تعالى، عن عائشة رضي الله عنها قالت: «لما صدر السبعون من عند رسول الله ﷺ طابت نفسه، وقد جعل الله له منعة، وقومًا أهل حرب، وعدة، ونجدة، وجعل البلاء يشتد على المسلمين من المشركين، لما يعلمون من الخروج، فضيقوا على أصحابه وتعبثوا(٤) بهم، ونالوا منهم ما لم يكونوا ينالون من الشتم والأذى، فشكا ذلك أصحابُ رسول الله ﷺ واستأذنوه في الهجرة، فقال: «قد أُريت دار هجرتكم، أريت سبخة ذات نخل بين لابتين، وهما الحرتان،

(١) انظر: السيرة النبوية تربية أمة وبناء دولة، صالح الشامي (ص ١١٨).

(٢) انظر: المصدر نفسه (ص ١٢٠، ١٢١).

(٣) انظر: الهجرة النبوية المباركة (ص ٣٣، ٣٤).

(٤) انظر: عَبِث: عبثًا: لعب فهو عابث لاعب بما لا يعينه. انظر: لسان العرب (٢/١٦٦).

ولو كانت السراة أرض نخل وسباخ لقلت هي هي» ثم مكث أيامًا، ثم خرج إلى أصحابه مسرورًا فقال: «قد أخبرت بدار هجرتكم، وهي يثرب، فمن أراد الخروج فيخرج إليها» فجعل القوم يتجهون، ويتوافقون ويتواسون ويخرجون، ويخفون ذلك، فكان أوَّل من قدم المدينة من أصحاب رسول الله ﷺ أبو سلمة بن عبد الأسد، ثم قدم بعده عامر بن ربيعة، معه امرأته ليلى بنت أبي حَثْمة، فهي أول ظعينة قدمت المدينة، ثم قدم أصحاب رسول الله ﷺ أرسالاً، فنزلوا على الأنصار، في دورهم، فآووهم، ونصروهم، وآسوهم، وكان سالم مولى أبي حذيفة يؤم المهاجرين بقباء، قبل أن يقدم النبي ﷺ، فلما خرج المسلمون في هجرتهم إلى المدينة، كَلِبَت[1] قريش عليهم، وحربوا واغتاظوا على من خرج من فتيانهم، وكان نفر من الأنصار بايعوا رسول الله ﷺ في البيعة الآخرة، ثم رجعوا إلى المدينة، فلما قدم أول من هاجر إلى قباء، خرجوا إلى رسول الله ﷺ بمكة، حتى قدموا مع أصحابه، في الهجرة، فهم مهاجرون أنصاريون، وهم ذكوان بن عبد قيس، وعقبة بن وهب بن كلدة، والعباس بن عبادة بن نضلة، وزياد بن لبيد، وخرج المسلمون جميعًا إلى المدينة، فلم يبق بمكة فيهم إلا رسول الله ﷺ وأبو بكر، وعلي، أو مفتون أو مريض أو ضعيف عن الخروج[2].

ثالثًا: من أساليب قريش في محاربة المهاجرين، ومن مشاهد العظمة في الهجرة:

عملت قيادة قريش مافي وسعها للحيلولة دون خروج من بقي من المسلمين إلى المدينة، واتبعت في ذلك عدة أساليب منها:

١ ـ أسلوب التفريق بين الرجل وزوجه وولده:

ونترك أم المؤمنين أم سلمة، هند بنت أبي أمية، تحدثنا عن روائع الإيمان وقوة اليقين في هجرتها، وهجرة زوجها أبي سلمة. قالت رضي الله عنها: «لما أجمع أبو سلمة الخروج إلى المدينة، رحل لي بعيره، ثم حملني عليه، وحمل معي ابني سلمة بن أبي سلمة في حجري، ثم خرج بي يقود بي بعيره، فلما رأته رجال بني المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، قاموا إليه، فقالوا: هذه نفسك غلبتنا عليها، أرأيت صاحبتنا هذه، علام نتركك تسير بها إلى البلاد؟

قالت: فنزعوا خطام البعير من يده، فأخذوني منه.

قالت: وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد، رهط أبي سلمة.

فقالوا: لا والله لا نترك ابننا عندها، إذ نزعتموها من صاحبنا.

قالت: فتجاذبوا بُنَيَّ سلمةَ بينهم حتى خلعوا يده، وانطلق به بنو عبد الأسد، وحبسني بنو المغيرة عندهم، وانطلق زوجي أبو سلمة إلى المدينة.

---

(١) كَلِبَت قريش عليهم: أي غضبت عليهم.

(٢) انظر: طبقات ابن سعد (١/ ٣٢٥).

قالت: ففُرق بيني، وبين زوجي، وبين ابني.

قالت: فكنت أخرج كل غداة فأجلس بالأبطح، فما أزال أبكي حتى أمسي، سنة أو قريبًا منها، حتى مرّ بي رجل من بني عمي ـ أحد بني المغيرة ـ فرأى مابي، فرحمني، فقال لبني المغيرة: ألا تخرجون هذه المسكينة، فرَّقتم بينها وبين زوجها، وبين ولدها؟

قال: فقالوا لي: الحقي بزوجك إن شئت.

قالت: وردّ بنو عبد الأسد إلي عند ذلك ابني.

قالت: فارتحلتُ ببعيري، ثم أخذت ابني فوضعته في حجري، ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة، وما معي أحد من خلق الله.

قالت: فقلت: أتبلغ بمن لقيت، حتى أقدَم على زوجي، حتى إذا كنت بالتنعيم لقيتُ عثمانَ بن طلحة بن أبي طلحة أخا بني عبد الدار.

فقال لي: إلى أين يا بنت أبي أمية؟

قالت: فقلت: أريد زوجي بالمدينة.

قال: أو ما معك أحد؟

قالت: فقلت: لا والله إلا الله، وبُنَيَّ هذا.

قال: والله ما لكِ مِن مَترك.

فأخذ بخطام البعير، فانطلق معي يَهوِي بي، فوالله ماصحبت رجلاً من العرب قط أرى أنه كان أكرم منه، كان إذا بلغ المنزل، أناخ بي، ثم استأخر عني حتى إذا نزلت، استأخر ببعيري فحط عنه، ثم قيَّده في الشجرة، ثم تنحى عني إلى الشجرة فاضطجع تحتها، فإذا دنا الرواح قام إلى بعيري فقدمه فرحله، ثم استأخر عني، فقال: اركبي، فإذا ركبت واستويت على بعيري أتى فأخذ بخطامه، فقاده حتى ينزل بي، فلم يزل يصنع ذلك بي، حتى أقدمني المدينة، فلما نظر إلى قرية بني عمرو بن عوف، بقباء، قال: زوجك في هذه القرية، وكان أبو سلمة بها نازلاً، فادخليها على بركة الله. ثم انصرف راجعًا إلى مكة.

قال فكانت تقول: والله ما أعلم أهل بيت في الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبي سلمة، وما رأيت صاحبًا قط أكرم من عثمان بن طلحة»[1].

فهذا مثل على الطرق القاسية، التي سلكتها قريش، لتحول بين أبي سلمة والهجرة،

(١) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٢٠٢، ٢٠٣).

فرجل يفرق بيه وبين زوجه عنوة، وبينه وبين فلذة كبده، على مرأى منه، كل ذلك من أجل أن يثنوه عن الهجرة، ولكن متى تمكن الإيمان من القلب، استحال أن يقدم صاحبه على الإسلام والإيمان شيئًا، حتى لو كان ذلك الشيء فلذة كبده، أو شريكة حياته، لذا انطلق أبو سلمة ﷺ إلى المدينة، لا يلوي على أحد، وفشل معه هذا الأسلوب، وللدعاة إلى الله فيه أسوة[١].

وهكذا أثَرُ الإيمان حين يخالط بشاشة القلوب، فهذه أسرة فرق شملها، وامرأة تبكي شدة مصابها، وطفل خلعت يده، وحُرِم من أبويه، وزوج وأب يسجل أروع صور التضحية والتجرد، ليكون أول مهاجر يصل أرض الهجرة، محتسبين في سبيل الله ما يلقون، مصممين على المضي في طريق الإيمان، والانحياز إلى كتيبة الهدى، فماذا عسى أن ينال الكفر وصناديده من أمثال هؤلاء؟

وأما صنيع عثمان بن طلحة ﷺ، فقد كان يومئذٍ كافرًا (وأسلم قبل الفتح)، ومع ذلك تشهد له أم سلمة ﷺ بكرم الصحبة، وذلك شاهد صدق على نفاسة هذا المعدن، وكمال مروءته، وحمايته للضعيف[٢]، فقد أبت عليه مروءته وخلقه العربي الأصيل، أن يَدَع امرأة شريفة، تسير وحدها في هذه الصحراء الموحشة، وإن كانت على غير دينه، وهو يعلم أنها بهجرتها تراغمه وأمثاله من كفار قريش!

فأين من هذه الأخلاق - يا قومي المسلمين - أخلاق الحضارة في القرن العشرين، من سطو على الحريات، واغتصاب للأعراض، بل وعلى قارعة الطريق، وما تطالعنا به الصحافة كل يوم من أحداث يندى لها جبين الإنسانية، من تفنن في وسائل الاغتصاب، وانتهاك الأعراض، والسطو على الأموال.

إن هذه القصة - ولها مُثُلٌ ونظائر - لتشهد أن ما كان للعرب من رصيد من الفضائل، كان أكثر من مثالبهم ورذائلهم، فمن ثم اختار الله منهم خاتم أنبيائه ورسله، وكانوا أهلاً لحمل الرسالة، وتبليغها للناس كافة[٣].

وتظهر عناية الله تعالى بأوليائه، وتسخيره لهم، فهو جل وعلا الذي سخر قلب عثمان بن طلحة للعناية بأم سلمة، ولذلك بذل الجهد والوقت من أجلها[٤]، كما تظهر سلامة فطرة عثمان بن طلحة، التي قادته أخيرًا إلى الإسلام، بعد صلح الحديبية، ولعل إضاءة قلبه بدأت

---

(١) انظر: في السيرة النبوية، د. إبراهيم علي محمد (ص ١٣٠، ١٣١)، تقسيم الأساليب أُخذ من هذا الكتاب، ومشاهد العظمة من الهجرة النبوية المباركة.

(٢) انظر: الهجرة النبوية المباركة (ص ١٢٤).

(٣) انظر: السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنّة، د. محمد أبو شهبة (١/ ٤٦١).

(٤) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٣/ ١٢٨).

منذ تلك الرحلة، في مصاحبته لأم سلمة رضي الله عنها [١].

٢ ـ أسلوب الاختطاف:

لم تكتف قيادة قريش بالمسلمين داخل مكة، لمنعهم من الهجرة، بل تعدت ذلك إلى محاولة إرجاع من دخل المدينة مهاجرًا، فقامت بتنفيذ عملية اختطاف أحد المهاجرين، ولقد نجحت هذه المحاولة، وتم اختطاف أحد المهاجرين من المدينة، وأعيد إلى مكة[٢]، وهذه الصورة التاريخية للاختطاف يحدثنا بها عمر بن الخطاب رضي الله عنه حيث قال: «اتعدت لما أردنا الهجرة إلى المدينة، أنا وعيَّاش بن أبي ربيعة، وهشام بن العاص بن وائل السهمي، التَّناضب[٣]، من أضَاة[٤] بني غفار، فوق سَرِف[٥]، وقلنا: أينا لم يُصْبِحْ عندها فقد حُبس، فليمض صاحباه.

قال: فأصبحت أنا وعياش بن أبي ربيعة عند التَّناضب، وحُبس عنا هشام، وفُتن فافتتن[٦].

فلما قدمنا المدينة نزلنا في بني عمرو بن عوف بقباء، وخرج أبو جهل بن هشام، والحارث بن هشام إلى عيَّاش بن أبي ربيعة، وكان ابن عمهما، وأخاهما لأمهما، حتى قدما علينا المدينة، ورسول الله ﷺ بمكة، فكلَّماه، وقالا: إن أمك قد نذرت أن لا تمسَّ رأسها حتى تراك، ولا تستظلَّ من شمس حتى تراك، فرقَّ لها، فقلت له: عيّاش، إنه والله إن يريدك القوم إلا ليفتنوك عن دينك، فاحذرهم، فوالله لو قد آذى أمك القمل لامتشطت، ولو قد اشتد عليها حر مكة لاستظلت.

قال: أبرُّ قسم أمي، ولي هناك مال فآخذه.

قال: فقلت: والله إنك لتعلم أني لمن أكثر قريش مالاً، فلك نصف مالي ولا تذهب معهما. قال: فأبى عليَّ إلا أن يخرج معهما، فلما أبى إلا ذلك، قال: قلت له: أما إذ قد فعلت مافعلت، فخذ ناقتي هذه، فإنها ناقة نجيبة ذلول[٧]، فالزم ظهرها، فإن رابك من القوم ريب فانج عليها، فخرج عليها معهما، حتى إذا كانوا ببعض الطريق، قال له أبو جهل:

---

(١) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٢٠٤).
(٢) انظر: في السيرة النبوية (ص ١٣٢).
(٣) التناضب: جمع تنضيب وهو شجر.
(٤) الأضاة: على عشرة أميال من مكة.
(٥) سرف: وادٍ متوسط الطول من أودية مكة.
(٦) انظر: الهجرة النبوية المباركة (ص ١٢٩).
(٧) الذلول: أذلها العمل، فصارت سهلة الركوب والانقياد.

يا أخي، والله لقد استغلظت بعيري هذا، أفلا تُعْقِبني[١] على ناقتك هذه؟ قال: بلى. قال: فأناخ، وأناخ، ليتحول عليها، فلما استووا بالأرض عدوا عليه، فأوثقاه، ثم دخلا به مكة، وفتناه فافتتن[٢].

قال: فكنا نقول: ما الله بقابل ممن افتتن صرفًا، ولا عدلاً ولا توبة، قوم عرفوا الله، ثم رجعوا إلى الكفر، لبلاء أصابهم، قال: وكانوا يقولون ذلك لأنفسهم، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة أنزل الله تعالى فيهم، وفي قولنا، وقولهم لأنفسهم: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الزُّمَر: الآيات ٥٣ ـ ٥٥].

قال عمر بن الخطاب: فكتبتها بيدي في صحيفة، وبعثت بها إلى هشام بن العاص، قال: فقال هشام: فلمّا أتتني، جعلت أقرؤها بذي طوى[٣] أُصَعِّد بها فيه، وأصوِّبُ، ولا أفهمها، حتى قلت: اللهمَّ فهِّمنيها، قال: فألقى الله تعالى في قلبي أنها إنما أنزلت فينا، وفيما كنا نقول في أنفسنا، ويقال فينا. قال: فرجعت إلى بعيري فجلست عليه، فلحقت برسول الله ﷺ، وهو بالمدينة[٤].

هذه الحادثة تظهر لنا كيف أعد عمر رضي الله عنه خطة الهجرة له، ولصاحبيه عياش بن أبي ربيعة، وهشام بن العاص بن وائل السهمي، وكان ثلاثتهم كل واحد من قبيلة، وكان مكان اللقاء الذي اتعدوا فيه بعيدًا عن مكة، وخارج الحرم، على طريق المدينة، ولقد تحدد الزمان والمكان بالضبط، بحيث إنه إذا تخلف أحدهم فليمض صاحباه، ولا ينتظرانه، لأنه قد حبس، وكما توقعوا، فقد حبس هشام بن العاص رضي الله عنه، بينما مضى عمر وعيّاش بهجرتهما، ونجحت الخطة كاملة ووصلا المدينة سالمين[٥].

إلا أن قريشًا صممت على متابعة المهاجرين، ولذلك أعدت خطة محكمة قام بتنفيذها أبو جهل، والحارث وهما أَخَوَا عياش من أمه، الأمر الذي جعل عياشًا يطمئن لهما، وبخاصة إذا كان الأمر يتعلق بأمه، فاختلق أبو جهل هذه الحيلة، لعلمه بمدى شفقة ورحمة عياش بأمه، والذي ظهر جليًّا عندما أظهر موافقته على العدوة معهما. كما تظهر الحادثة الحس الأمني الرفيع، الذي كان يتمتع به عمر رضي الله عنه، حيث صدقت فراسته في أمر الاختطاف[٦].

---

(١) تُعقبني: تجعلني أعقبك عليها لركوبها.

(٢) انظر السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٢٠٥).

(٣) ذو طوى: وادٍ من أودية مكة.

(٤) انظر: المجمع للهيثمي (٦/ ٦١) وقال: رواه البزار ورجاله ثقات، الهجرة النبوية المباركة (ص ١٣١).

(٥) انظر: التربية القيادية (٢/ ١٥٩).

(٦) انظر: في السيرة النبوية (ص ١٣٤).

كما يظهر المستوى العظيم من الأخوة التي بناها الإسلام في هذه النفوس، فعمر يضحي بنصف ماله، حرصًا على سلامة أخيه، وخوفًا عليه من أن يفتنه المشركون بعد عودته، ولكن غلبت عياشاً عاطفته نحو أمه، وبره بها، ولذلك قرر أن يمضي لمكة فيبر قسم أمه، ويأتي بماله هناك، وتأبى عليه عفته أن يأخذ نصف مال أخيه عمر ﷺ، وماله قائم في مكة لم يمس، غير أن أفق عمر ﷺ كان أبعد، فكأنه يرى رأى العين المصير المشؤوم، الذي سينزل بعياش لو عاد إلى مكة، وحين عجز عن إقناعه أعطاه ناقته الذلول النجيبة، وحدث لعياش ما توقعه عمر من غدر المشركين به[١].

وساد في الصف المسلم أن الله تعالى لا يقبل صرفًا ولا عدلاً من هؤلاء الذين فتنوا فافتتنوا، وتعايشوا مع المجتمع الجاهلي، فنزل قول الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ [الزُّمَر: الآية ٥٣] وما إن نزلت هذه الآيات حتى سارع الفاروق ﷺ، فبعث بهذه الآية إلى أخَوَيه الحميمين عياش وهشام ليجدوا محاولاتهما في مغادرة معسكر الكفرة؛ أي سمو عظيم عند ابن الخطاب ﷺ؟ لقد حاول مع أخيه عياش، أعطاه نصف ماله على ألا يغادر المدينة، وأعطاه ناقته ليفر عليها، ومع هذا كله، فلم يشمت بأخيه، ولم يَتَشَفَّ منه لأنه خالفه، ورفض نصيحته، وألقى برأيه خلف ظهره، إنما كان شعور الحب والوفاء لأخيه، هو الذي يسيطر عليه، فما أن نزلت الآية حتى سارع ببعثها إلى أخويه في مكة، ولكل المستضعفين هناك ليقوموا بمحاولات جديدة للانضمام إلى المعسكر الإسلامي[٢].

٣ ـ أسلوب الحبس:

لجأت قريش إلى الحبس، كأسلوب لمنع الهجرة، فكل من تقبض عليه، وهو يحاول الهجرة، كانت تقوم بحبسه داخل أحد البيوت، مع وضع يديه ورجليه في القيد، وتفرض عليه رقابة وحراسة مشددة، حتى لا يتمكن من الهرب، وأحيانًا يكون الحبس داخل حائط بدون سقف، كما فعل مع عياش وهشام بن العاص $ذ، حيث كان محبوسين في بيت لا سقف له[٣]. وذلك زيادة في التعذيب، إذ يضاف إلى وحشة الحبس حرارة الشمس وسط بيئة جبلية شديدة الحرارة مثل مكة.

فقيادة قريش تريد بذلك تحقيق هدفين: أولهما منع المحبوسين من الهجرة، والآخر أن يكون هذا الحبس درسًا وعظة، لكل من يحاول الهجرة، من أولئك الذين يفكرون فيها ممن بقي من المسلمين بمكة، ولكن لم يمنع هذا الأسلوب المسلمين من الخروج إلى المدينة المنورة، فقد كان بعض المسلمين محبوسين في مكة مثل عياش، وهشام ﷺ، ولكنهم تمكنوا من الخروج واستقروا بالمدينة[٤].

---

(١) انظر: التربية القيادية (٢/ ١٦٠).

(٢) انظر: التربية القيادية (٢/ ١٦٠).

(٣) انظر: في السيرة النبوية (ص ١٣٢).

(٤) المصدر نفسه (ص ١٣٢).

كان النبي ﷺ بعد هجرته يقنت ويدعو للمستضعفين في مكة عامة، ولبعضم بأسمائهم خاصة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركعة الأخيرة يقول: «اللهم أنج عيّاش بن أبي ربيعة، اللهم أنج سَلَمَة بن هشام، اللهم أنج الوليد بن الوليد، اللهم أنج المستضعفين من المؤمنين، اللهم اشدد وطأتك على مُضَر، اللهم اجعلها سنين كَسِنِي يوسف»[١].

ولم يترك المسلمون أمر اختطاف عياش، فقد ندب الرسول ﷺ أحد أصحابه وفعلاً استعد للمهمة، ورتب لها مايحقق نجاحها، وجاء إلى مكة، واستطاع بكل اقتدار وذكاء أن يصل إلى البيت الذي حُبسا فيه، وأطلق سراحهما، ورجع بهما إلى المدينة المنورة[٢].

٤ ـ أسلوب التجريد من المال:

كان صهيب بن سنان النَّمَري من النَّمِر بن قاسط، أغارت عليهم الروم، فسُبي وهو صغير، وأخذ لسان أولئك الذين سَبَوه، ثم تقلَّب في الرِّق، حتى ابتاعه عبد الله بن جُدعان ثم أعتقه، ودخل الإسلام هو وعمار بن ياسر $ذ في يوم واحد[٣].

وكانت هجرة صهيب رضي الله عنه عملاً تتجلى فيه روعة الإيمان، وعظمة التجرد لله، حيث ضحّى بكل ما يملك في سبيل الله ورسوله، واللحوق بكتيبة التوحيد والإيمان[٤]، فعن أبي عثمان النَّهْدِي رحمه الله قال: بلغني أن صهيبًا حين أراد الهجرة إلى المدينة، قال له أهل مكة أتيتنا هاهنا صُعْلُوكًا[٥]، حقيرًا، فكثر مالك عندنا، وبلغت ما بلغت، ثم تنطلق بنفسك ومالك؟ والله لا يكون ذلك. فقال: أرأيتم إن تركت مالي تخلون أنتم سبيلي؟ قالوا: نعم فجعل لهم ماله أجمع، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «ربح صهيب، ربح صهيب»[٦]، وعن عكرمة رحمه الله قال: لما خرج صهيب مهاجرًا، تبعه أهل مكة، فنثل[٧] كنانته، فأخرج منها أربعين سهمًا، فقال: لا تصلون إليَّ حتى أضع في كل رجل منكم سهمًا، ثم أصيرُ بعد إلى السيف فتعلمون أني رجل، وقد خلَّفت بمكة قينتين، فهما لكم[٨]، وقال عكرمة: ونزلت على النبي ﷺ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٠٧]. فلما رآه النبي ﷺ قال: «أبا يحيى، ربح البيع» قال: وتلا عليه[٩] الآية.

---

(١) البخاري، كتاب الاستسقاء (٢/ ٣٣ رقم ١٠٠٦).
(٢) انظر: في السيرة النبوية (ص ١٣٥).
(٣) انظر: الهجرة النبوية المباركة (ص ١١٩).
(٤) المصدر نفسه (ص ١٢٠).
(٥) الصعلوك: الفقير.
(٦) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٤٧٧).
(٧) نثل: استخرج مافيها من النبل والسهام.
(٨) أخرجه الحاكم (٣/ ٣٩٨) وقال: صحيح على شرط مسلم، وسكت عنه الذهبي.
(٩) أخرجه الحاكم (٣/ ٣٩٨) وقال: صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه، وسكت عنه الذهبي.

لكأني[١] بصهيب ﷺ يقدم الدليل القاطع على فساد عقل أولئك الماديين، الذين يَزِنُونَ حركات التاريخ وأحداثه كلها، بميزان المادة، فأين هي المادة التي سوف يكسبها صهيب في هجرته، والتي ضحى من أجلها بكل ما يملك؟

هل تراه ينتظر أن يعطيه محمد ﷺ منصبًا يعوّضه عما فقده؟ أم هل ترى محمدًا ﷺ يُمنِّيه بالعيش الفاخر في جوار أهل يثرب؟

إن صهيبًا ما فعل ذلك، وما انحاز إلى الفئة المؤمنة إلا ابتغاء مرضاة الله، بالغًا ما بلغ الثمن، ليضرب لشباب الإسلام مثلاً في التضحية عزيزة المنال، عساهم يسيرون على الدرب، ويقتفون الأثر[٢].

إن هذه المواقف الرائعة لم تكن هي كلَّ مواقف العظمة والشموخ في الهجرة المباركة، بل امتلأ هذا الحدث العظيم بكثير من مشاهد العظمة، والتجرد والتضحية، التي تعطي الأمة دروسًا بليغة، في بناء المجد، وتحصيل العزة[٣].

رابعًا: البيوتات الحاضنة وأثرها في النفوس:

لقد كان من نتائج إيمان الأنصار ومبايعتهم وتعهدهم بالنصرة، أن دعا رسول الله ﷺ المسلمين إلى الهجرة إلى المدينة، كما كان من نتائج ذلك أن ظهرت ظاهرة عظيمة من التكافل بين المسلمين، ففتحت بيوت الأنصار أبوابها وقلوب أصحابها لوفود المهاجرين، واستعدت لاحتضانهم ـ رجالاً ونساءً ـ إذ أصبح المسكن الواحد يضمّ المهاجري والأنصاري، والمهاجرة والأنصارية، يتقاسمون المال والمكان، والطعام والمسؤولية الإسلامية، فمن هذه البيوتات الحاضنة:

١ ـ دار مبشّر بن عبد المنذر بن زَنْبَر بقباء: ونزل بها مجموعة من المهاجرين نساءً ورجالاً، وقد ضمت هذه الدور عمر بن الخطاب، ومن لحق به من أهله، وقومه وابنته حفصة وزوجها، وعيّاش بن أبي ربيعة.

٢ ـ دار خُبيب بن إساف أخي بني الحارث بن الخزرج بالسُّنح[٤] نزل بها طلحة بن عبيد الله بن عثمان، وأمه، وصهيب بن سنان.

٣ ـ دار أسعد بن زرارة من بني النّجار، قيل: نزل بها حمزة بن عبد المطلب.

---

(١) انظر: الهجرة النبوية المباركة، د. عبد الرحمٰن البر (ص ١٢١).

(٢) المصدر نفسه (ص ١٢١).

(٣) المصدر نفسه (ص ١١٩).

(٤) انظر: المرأة في العهد النبوي (ص ١١٦).

٤ - دار سعد بن خيثمة أخي بني النجار، وكان يسمّى بيت العزاب ونزل بها الأعزاب من المهاجرين.

٥ - دار عبد الله بن سلمة أخي بَلْعجلان بقباء: نزل بها عبيدة بن الحارث وأمّه سخيلة، ومِسْطح بن أثاثة بن عبَّاد بن المطلب، والطفيل بن الحارث، وطُليب بن عُمير، والحُصين بن الحارث. نزلوا جميعًا على عبد الله بن سلمة بقباء.

٦ - دار بني جَحْجَبَى، والمُحتَضِن هو منذر بن محمد بن عقبة، نزل عنده الزبير بن العوام، وزوجه أسماء بنت أبي بكر، وأبو سَبْرة بن أبي رُهْم وزوجته أم كلثوم بنت سهيل[١].

٧ - دار بني عبد الأشهل، والمحتضن هو سعد بن معاذ بن النعمان من بني عبد الأشهل، نزل بها مصعب بن عمير، وزوجته حَمنة بنت جحش.

٨ - دار بني النجار، والمحتضن هو أوس بن ثابت بن المنذر، نزل بها عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت رسول الله ﷺ[٢].

فهذه المقاسمة، وهذا التكافل الاجتماعي، كان من أهم العناصر التي مهدت لإقامة رسول الله ﷺ، وصحابته المهاجرين معه، وبعده، إقامة طيبة، تنبض بالإيثار على النفس، وبِوُدّ الأخوة الصادقة المؤمنة[٣].

بهذه الروح العالية، والإيمان الوثيق، والصدق في المعاملة، تمت المؤاخاة، وتم الوفاق بين المهاجرين والأنصار. وقد يحدث تساؤلٌ فيقال: لماذا لم نسمع ولم تسجل المصادر، ولم تكتب المراجع أن خلافات وقعت في هذه البيوت؟

وأين النساء وما اشتهرن به من مشاكسات؟.

إنه الدين الحق الذي جعل تقوى الله أساسًا لتصرف كل نفس، والأخلاق السامية التي فرضت الأخوة بين المسلمين، ونصرة الدعوة، إنها المبايعة وأثرها في النفوس، إنه الصدق، والعمل من أجل الجماعة، خوفًا من العقاب، ورهبة من اليوم الآخر، ورغبة في الثواب، وطمعًا في الجنة، إنه دفء حضانة الإيمان، واستقامة النفس والسلوك، وصدق الطوية.. فكل من أسلم، وكل من بايع، وكل من أسلمت وبايعت، يعملون جميعهم بما يؤمرون به، ويخلصون فيما يقولون، يخافون الله في السر والعلن، آمنت نفوسهم فاحتضنت الأنصاريةُ المهاجرة، فالكل يعمل من أجل مصلحة الكل، فهذا هو التكافل الاجتماعي في أجلى صورة، وأقدس واقعة، رغب الكل في الثواب، حتى أن الواحد منهم يخاف ذهاب

(١) المصدر السابق نفسه (ص ١١٧).

(٢) انظر: السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنّة لأبي شهبة (١/ ٤٦٨، ٤٦٩).

(٣) انظر: المرأة في العهد النبوي (ص ١١٨).

الأنصاريّ بالأجر كله[١].

إن جانب البذل والعطاء ظاهرة؛ نحن بحاجة إلى الإشارة إليها في كل وقت. إننا في عالمنا المعاصر، وفي الصف الإسلامي، وفي رحلة لبضعة أيام تتكشف النفوس، والعيوب، والحزازات، والظنون، وهذا مجتمع يبنى ولَمَّا يصل رسول الله بعد، ومع ذلك تفتح البيوت للوافدين الجدد، ليس على مستوى فرد فقط، بل على مستوى جماعي كذلك، ويقيم المهاجرون في بيوت الأنصار أشهرًا عدة، والمعايشة اليومية مستمرة، والأنصار يبذلون المال والحب، والخدمات لإخوانهم القادمين إليهم. نحن أمام مجتمع إسلامي، بلغ الذروة في لحمته وانصهاره، ولم يكن المهاجرون إلا القدوة للأنصار بالبذل والعطاء، فلم يكونوا أصلاً فقراء، بل كانوا يملكون المال، ويملكون الدار، وتركوا ذلك كله ابتغاء مرضات الله، وبذلوه كله لطاعته جل وعلا، فكانوا كما وصفهم القرآن الكريم: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: الآية ٨].

كان هذا المجتمع المدني الجديد، يتربى على معاني الإيمان والتقوى، ولم يصل النبي ﷺ بعد، ولكن تحت إشراف النقباء الاثنَيْ عشر، الذين كانوا في كفالتهم لقومهم، ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم، وبإشراف قيادات المهاجرين الكبرى، التي وصلت المدينة، والذين استقوا جميعًا من النبع النبوي الثر، واقتبسوا من هديه[٢].

ومن معالم هذا المجتمع الجديد ذوبان العصبية، فقد كان إمام المسلمين سالم مولى أبي حذيفة رضي الله عنه، لأنه كان أكثرهم قرآنًا، فهذا المجتمع الذي يوجد فيه علية أصحاب محمد ﷺ، من المهاجرين، والأنصار، وسادة العرب من قريش، والأوس والخزرج، يقوده ويؤمه حامل القرآن، فالكرامة العليا فيه لقارىء كتاب الله وحامله، وحامل القرآن في المجتمع الإسلامي هو نفسه حامل اللواء في الحرب، فليس بينهما ذلك الانفصام الذي نشهده اليوم، بين حملة القرآن من الحفاظ، وبين المجاهدين في سبيل الله، فقد كان حامل لواء المهاجرين في معركة اليمامة سالم مولى أبي حذيفة، فقيل له في ذلك، فكان شعاره بئس حامل القرآن ـ يعني إن فررت ـ فقطعت يمينه، فأخذ اللواء بيساره، فقطعت، فاعتنقه إلى أن صرع واستشهد في سبيل الله[٣].

ومن معالم المجتمع الإسلامي الجديد: حرية الدعوة إلى الله علانية، فقد أصبح واضحًا عند الجميع أن معظم قيادات يثرب دخلت في هذا الدين، ونشط الشباب والنساء والرجال في الدعوة إلى الله، والتبشير بقدوم رسول الله ﷺ على قدم وساق.

---

(١) انظر: المرأة في العهد النبوي (ص ١٣٢).

(٢) انظر: التربية القيادية (٢/ ١٧١، ١٧٢).

(٣) المصدر نفسه (٢/ ١٧٤، ١٧٥).

ولا بد من المقارنة بين المجتمع الذي قام بالحبشة من المسلمين، وبين المجتمع الإسلامي في يثرب. لقد كانت الحبشة تحمل طابع اللجوء السياسي، والجالية الأجنبية، أكثر مما كانت تحمل طابع المجتمع الإسلامي الكامل، صحيح أن المسلمين ملكوا حرية العبادة هناك، لكنهم معزولون عن المجتمع النصراني، لم يستطيعوا أن يؤثروا فيه التأثير المنشود، وإن كانت هجرة الحبشة خطوة متقدمة على جو مكة، حيث لا تتوافر حرية الدعوة، وحرية العبادة، ولكنه دون المجتمع الإسلامي في المدينة بكثير، ولذلك شرع مهاجرو الحبشة بمجرد سماع خبر هجرة المدينة بالتوجه نحوها مباشرة، أو عن طريق مكة، إلا من طلبت منه القيادة العليا البقاء هناك، لقد أصبحت المدينة مسلمة، بعد أن عاشت قرونًا وثنية مشركة.

لقد أصبح المجتمع المدني مسلمًا، وبدأ نموه وتكوينه الفعلي بعد عودة الاثْنَيْ عشر صحابيًا من البيعة الأولى، والتي كان على رأسها الصحابي الجليل أسعد بن زرارة، والتي حملت المسؤولية الدعوية فقط، دون الوجود السياسي، وبلغ أوج توسعه وبنائه بعد عودة السبعين، الذين ملكوا الشارع السياسي والاجتماعي، وقرروا أن تكون بلدهم عاصمة المسلمين الأولى في الأرض، وهم على استعداد أن يواجهوا كل عدو خارجي، يمكن أن ينال من هذه السيادة، حتى قبل قدوم رسول الله ﷺ إليهم في المدينة.

إن القاعدة الصلبة التي بذل رسول الله ﷺ وقتًا وجهدًا في تربيتها، بدأت تعطي ثمارها أكثر بعد أن التحمت بالمجتمع المدني الجديد، وانصهر كلاهما في معاني العقيدة وإخوة الدين.

لقد أعد رسول الله ﷺ الأفراد وصقلهم في بوتقة الجماعة، وكوّن بهم القاعدة الصلبة، ولم يقم المجتمع الإسلامي الذي تقوم عليه الدولة إلا بعد بيعة الحرب، وبذلك نقول بأن المجتمع الإسلامي قام بعد ما تهيأت القوة المناسبة لحمايته في الأرض[1].

وهكذا انتقلت الجماعة المسلمة، المنظمة القوية إلى المدينة، والتحمت مع إخوانها الأنصار، وتشكل المجتمع المسلم الذي أصبح ينتظر قائده الأعلى عليه الصلاة والسلام، ليعلن ولادة دولة الإسلام، التي صنعت فيما بعد حضارة لم يعرف التاريخ مثلها حتى يومنا هذا.

خامسًا: لماذا اختيرت المدينة كعاصمة للدولة الإسلامية؟

كان من حكمة الله تعالى في اختيار المدينة، دارًا للهجرة، ومركزًا للدعوة ـ هذا عدا ما أراده الله من إكرام أهلها ـ أسرارٌ لا يعلمها إلا الله، إنها امتازت بتحصن طبيعي حربي، لا تزاحمها في ذلك مدينة قريبة في الجزيرة، فكانت حَرَّة الوَبْرَة، مُطْبِقة على المدينة من الناحية

(١) انظر: التربية القيادية (٢/١٤٦، ١٤٧).

الغربية، وحَرَّة واقِم، مطبقة على المدينة من الناحية الشرقية، وكانت المنطقة الشمالية من المدينة، هي الناحية الوحيدة المكشوفة (وهي التي حصنها رسول الله ﷺ بالخندق سنة خمس في غزوة الأحزاب) وكانت الجهة الأخرى من أطراف المدينة محاطة بأشجار النخيل والزروع الكثيفة، لا يمر منها الجيش إلا في طرق ضيقة، لا يتفق فيها النظام العسكري، وترتيب الصفوف.

وكانت خفارات عسكرية صغيرة، كافية بإفساد النظام العسكري، ومنعه من التقدم، يقول ابن إسحاق: «كان أحد جانبي المدينة عورة، وسائر جوانبها مشككة بالبنيان والنخيل، لا يتمكن العدو منها»[١].

ولعل النبي ﷺ قد أشار إلى هذه الحكمة الإلهية في اختيار المدينة بقوله لأصحابه قبل الهجرة: «إني رأيت دار هجرتكم، ذات نخيل بين لابتين وهما الحرتان»[٢]، فهاجر من هاجر قبل المدينة.

وكان أهل المدينة من الأوس والخزرج أصحاب نخوة وإباء، وفروسية، وقوة وشكيمة، ألفوا الحرية، ولم يخضعوا لأحد، ولم يدفعوا إلى قبيلة أو حكومة إتاوة، أو جباية، يقول ابن خلدون: ولم يزل هذان الحيان قد غلبوا على يثرب، وكان الاعتزاز والمنعة تعرف لهم في ذلك، ويدخل في ملتهم من جاورهم من قبائل مضر.

وكان بنو عدي بن النجار أخواله ﷺ، فأم عبد المطلب بن هاشم إحدى نسائهم، فقد تزوج هاشم بسلمى بنت عمرو أحد بني عدي بن النجار، وولدت لهاشم عبد المطلب، وتركه هاشم عندها، حتى صار غلامًا دون المراهقة، ثم احتمله عمه المطلب، فجاء به إلى مكة، وكانت الأرحام يحسب لها حساب كبير في حياة العرب الاجتماعية، ومنهم أبو أيوب الأنصاري الذي نزل رسول الله ﷺ في داره في المدينة.

وكان الأوس والخزرج من قحطان، والمهاجرون ومن سبق إلى الإسلام في مكة وما حولها من عدنان، ولما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، وقام الأنصار بنصره، اجتمعت بذلك عدنان وقحطان تحت لواء الإسلام، وكانوا كجسد واحد، وكانت بينهما مفاضلة ومسابقة في الجاهلية، وبذلك لم يجد الشيطان سبيلاً إلى قلوبهم لإثارة الفتنة والتعزي بعزاء الجاهلية، باسم الحمية القحطانية أو العدنانية، فكانت لكل ذلك مدينة يثرب أصلح مكان لهجرة الرسول ﷺ وأصحابه، واتخاذهم لها دارًا وقرارًا، حتى يقوى الإسلام ويشق طريقه إلى الأمام، ويفتح الجزيرة ثم يفتح العالم المتمدن[٣].

---

(١) انظر: السيرة النبوية للندوي (ص ١٥٧).

(٢) انظر: الهجرة النبوية المباركة (ص ٥٢).

(٣) انظر: الأساس في السنة (١/ ٣٣٣).

١ ـ محبته ﷺ ودعاؤه لها:

دعا النبي ﷺ ربه قائلاً: «اللهم حبِّب إلينا المدينة كحبِّنا مكة أو أشد»[١]، وعن أنس رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ كان إذا قَدِمَ من سفر، فأبصر إلى درجات المدينة[٢]، أوضع ناقته[٣]، وإن كانت دابة حرَّكها»، قال أبو عبد الله: زاد الحارث بن عمير عن حميد «حرَّكها من حُبِّها»[٤].

٢ ـ دعاء النبي ﷺ لها بضعفي ما في مكة من البركة:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «كان الناس إذا رأوا أول الثمر جاءوا به إلى النبي ﷺ، فإذا أخذه رسول الله ﷺ قال: «اللهم بارك لنا في ثمرنا، وبارك لنا في مدينتنا وبارك لنا في صاعنا، وبارك لنا في مُدِّنا، ـ اللهم إن إبراهيم عبدُك وخليلُك ونبيّك وإني عبدك ونبيك، وإنه دعاك لمكة، وإني أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك لمكة ومثله معه» قال: ثم يدعو أصغر وليد له فيعطيه ذلك الثمر[٥].

٣ ـ عصمتها من الدّجال والطاعون ببركته ﷺ:

إن الله تعالى قيَّض لها ملائكة يحرسونها، فلا يستطيع الدجال إليها سبيلاً، بل يلقى إليه بإخوانه من الكفار والمنافقين، كما أن من لوازم دعاء النبي ﷺ بالصحة ورفع الوباء أن لا ينزل بها الطاعون، كما أخبر بذلك المعصوم[٦] ﷺ.

٤ ـ فضيلة الصبر على شدّتها:

فقد وعد النبي ﷺ من صبر على شدة المدينة وضيق عيشها بالشفاعة يوم القيامة[٧]، فعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون، لا يدعها أحد رغبة عنها إلا أبدل الله فيها من هو خير منه، ولا يثبت أحد على لأوائها[٨] وجَهْدها إلا كنت له شفيعًا أو شهيدًا يوم القيامة»[٩].

---

(١) انظر: الهجرة النبوية المباركة (ص ١٥٧).
(٢) وفي رواية: «جدارات»: جمع جدار وهو الحائط ودرجات: أي الطرق المرتفعة.
(٣) أوضع ناقته: حثها على السرعة.
(٤) البخاري، كتاب العمرة، باب من أسرع ناقته (٣/ ٦٣٠ رقم ١٨٠٢).
(٥) مسلم، كتاب الحج، باب فضل المدينة (٢/ ١٠٠٠ ورقمه ٤٧٢ـ ١٣٧٣).
(٦) انظر: الهجرة النبوية المباركة (ص ١٥٨).
(٧) انظر: المصدر نفسه (ص ١٦٠).
(٨) اللأواء: الشدة وضيق العيش.
(٩) مسلم، كتاب الحج، باب فضل المدينة (٢/ ٩٩٢ رقم ١٣٦٣).

٥ ـ فضيلة الموت فيها:

فعن ابن عمر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «من استطاع أن يموت بالمدينة فليَمت، فإني أشفع لمن يموت بها»[١]، وكان عمر بن الخطاب ﷺ يدعو بهذا الدعاء: «اللهم ارزقني شهادة في سبيلك، واجعل موتي في بلد رسولك ﷺ»[٢].

وقد استجاب الله للفاروق ﷺ فاستشهد في محراب رسول الله ﷺ وهو يؤم المسلمين في صلاة الفجر.

٦ ـ هي كهف الإيمان وتنفي الخبث عنها:

فالإيمان يلجأ إليها مهما ضاقت به البلاد، والأخباث والأشرار لا مقام لهم فيها ولا استقرار، ولا يخرج منها أحد رغبة عنها إلا أبدلها الله خيرًا منه من المؤمنين الصادقين[٣]، فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الإيمان ليأرِز[٤] إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جُحرها»[٥]، وقال ﷺ: «... والذي نفسي بيده لا يخرج منهم أحد رغبة عنها، إلا أخلف الله فيها خيرًا منه، ألا إن المدينة كالكير، تُخرج الخبث، لا تقوم الساعة حتى تنفي المدينة شرارها كما ينفي الكيرُ خَبَثَ الحديد»[٦].

٧ ـ تنفي الذنوب والأوزار:

عن زيد بن ثابت ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنها[٧] طَيْبَةُ تنفي الذنوب[٨]، كما تنفى النار خبث الفضة»[٩].

٨ ـ حفظ الله إياها ممن يريدها بسوء:

فقد تكفل الله بحفظها من كل قاصد إياها بسوء، وتوعد النبي ﷺ من أحدث فيها حدثًا، أو آوى فيها مُحدِثًا، أو أخاف أهلها، بلعنة الله وعذابه، وبالهلاك العاجل[١٠]، فعن سعد بن

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٧٤، ١٠٤ ولفظه برقم ٥٨١٨) بإسناد صحيح، وصححه ابن حبان (رقم ٣٧٤١).
(٢) البخاري، كتاب فضائل المدينة، (٤/ ١٠٠ رقم ١٨٩٠).
(٣) انظر: الهجرة النبوية المباركة (ص ١٦١).
(٤) يأرز: ينضم ويجتمع. انظر: فتح الباري (٤/ ٩٣).
(٥) البخاري، كتاب فضائل المدينة (٤/ ٩٣ رقم ١٨٧٦).
(٦) مسلم، كتاب الحج، باب المدينة تنفي شرارها (٢/ ١٠٠٥ رقم ١٣٨١).
(٧) إنها: يعني المدينة المنورة.
(٨) في رواية (تنفي الخبث) وفي رواية (تنفي الرجال).
(٩) البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة أحد (٧/ ٣٥٦ رقم ٤٠٥٠).
(١٠) انظر: الهجرة النبوية المباركة (ص ١٦٢).

أبي وقاص ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يكيد أهل المدينة أحد إلا انماع[١] كما ينماع الملح في الماء»[٢]، وقال ﷺ: «المدينة حرم، فمن أحدث فيها حدثًا[٣] أو آوى محدثًا[٤]، فعليه لعنة الله، والملائكة، والناس أجمعين، لا يُقْبَلُ منه يوم القيامة عَدْلٌ، ولا صَرْفٌ»[٥].

٩ ـ تحريمها:

فقد حرّمها النبي ﷺ بوحي من الله، فلا يُراق فيها دم، ولا يُحمْل فيها سلاح، ولا يروع فيها أحد، ولا يقطع فيها شجر، ولا تَحِلُّ لُقَطَتُها إلا لمنشد، وغير ذلك مما يدخل في تحريمها، قال ﷺ: «إن إبراهيم حرّم مكة ودعا لها، وحرَّمت المدينة كما حرّم إبراهيم مكة، ودعوت لها في مُدِّها وصاعها مثل ما دعا إبراهيم عليه السلام لمكة»[٦].

وقال ﷺ: «... اللَّهم إن إبراهيم حرّم مكة، وإني حرمت مابين لابتيها»[٧] يعني المدينة، وقال ﷺ: «لا يُخْتلى خَلاها، ولا ينفَّر صيدُها[٨]، ولا تُلتقط لُقَطتُها إلا لمن أشار بها[٩]، ولا تُقطع منها شجرة إلا أن يعلف رجل بعيره ولا يُحمل فيها السلاح لقتال»[١٠].

إن هذه الفضائل العظيمة، جعلت الصحابة يتعلقون بها، ويحرصون على الهجرة إليها، والمقام فيها، وبذلك تجمعت طاقات الأمة فيها، ثم توجهت نحو القضاء على الشرك بأنواعه، والكفر بأشكاله، وفتحوا مشارق الأرض ومغاربها.

(١) انماع: ذاب وسال.
(٢) البخاري، كتاب فضائل المدينة، باب إثم من كاد أهل المدينة (٤/ ٩٤ رقم ١٨٧٧).
(٣) الحدث: الإثم أو الأمر المنكر الذي ليس بمعروف في السنّة.
(٤) المحدث: أي من أتى الحدث.
(٥) مسلم، كتاب الحج، باب فضل المدينة (٢/ ٩٩٩ رقم ١٣٧١).
(٦) البخاري، كتاب البيوع، باب بركة صاع النبي ومده (٤/ ٣٤٦ رقم ٢١٢٩).
(٧) البخاري، كتاب المغازي، باب أحد يحبنا ونحبه (٧/ ٣٧٧ رقم ٤٠٨٤).
(٨) لا يُخْتَلى خَلاَها: لا يُجزّ، ولايقطع الحشيش الرطب فيها. لا يُنَفَّر صيدُها: لا يُزجر ويمنع من الرعي.
(٩) المراد تعريف اللقطة.
(١٠) أخرجه أحمد (١/ ١١٩ ورقمه ٩٥٩، قال محققوه: صحيح لغيره).